طوق الحمامة

لأبي محمد ابن حزم

تمهيد :

يقول أبو مروان ابن حيان : ويا لبدائع هذا الحبر (علي بن حزم) ! وغرره ما أوضحها – على كثرة الدافنين لها والطامسين لمحاسنها – ! .. وعلى ذلك فليس ببدع فيما أضيع منه ، فأزهد الناس في عالم أهله ! » . اهـ وشهرة أبى محمد في التاريخ الاسلامي : بإمامته وحفظه وقوة حجته وسعة أفقه ، وبالمحلى والفصل والاحكام [1] وكان في كل هذه عضب اللسان، سليطه ، ثائراً يصك معارضه صك الجندل .

وما عرف أن له ضرباً من الحديث « تماع فيه نفسه انمياعاً » كما قال ابن قيم الجوزية في «الروضة» – .. ولكن تبين فيما بعد أنه كان لذلك الامام قلب خفاق ، وأنه حمل راية الحب في زمانه ، وأول ما عرف ذلك كان في دوائر المستشرقين [2] .

أجل لقد اهتم به المستشرقون اهتماماً منقطع النظير وكلفوا به أيما كلف ، وهم انما يحتفون بالأثر الجيد [3] .

وأبو محمد شخصية محترمة في أوساط النهضة العلمية والأدبية الحديثة لما يتميز به بين أعلام المسلمين بشخصيته المستقلة ، وعقله الحر القوي اللاقط ،

وأفقه الواسع الرحيب .. ويعود احترام متأدبي هذا العصر لأبى محمد أيضاً إلى نتاجه المبتكر في دراساته النفسية عن الحب والأخلاق ، ورده الظواهر إلى بواعثها وظاهرة هذا الاحترام تبدو في استعراض الأستاذ فتحي عثمان لبعض آراء ابى محمد الطرية في كتيب أسماه « آراء تقدمية » كما تبدو في دراسات الدكتور طه حسين (٤) والدكتور احسان عباس (٥) والدكتور يحيى حقي (٦) والدكتور طه الحاجري (٧) والدكتور عمر فروخ (٨) والدكتور شوقي ضيف (٩) والدكتور زكريا ابراهيم (١٠) والدكاترة زكي مبـــارك (١١) والدكتور أحمد أمين(١٢) والدكتور قدري طوقان(١٣)والأستاذ محمد عنان (١٤) والشيخ محمد أبو زهرة(١٥)والشيخ أحمد شاكر(١٦) والأستاذ سعيد الأفغاني(١٧) والدكتور حسين مؤنس(١٨)وغيرهم و«الطوق » طاقة زهر أريجة من الأقاصيص ومقطعات الشعر والتحليل النفسي الخلقي للحب (١٩) .

وهو نثر فني رفيع ، وأبو محمد وضع الحب في قالب علمي فلم يفقـــده مقوماته الأدبية . فلكل هذه الحالات عني المستشرقون بالطوق ، وكذلك مثقفوا جيلنـــا ، وإن كان تحمسهم وطفرتهم صدى الاستحسان الاستشراقي !

قال أبو عبد الرحمن : وغرضنا بهذه الدراسة أن نكشف عما في «الطوق» من روعة لنرى هل يستحق تلك العناية وذلك الاحتفاء ، والله المستعان .

مواد البحث :

ستكون دراستنا هذه وفق الفصول والعناوين التالية :

١ ــ الطوق من الناحية التاريخية : صحة عزوه الى أبي محمد .. عـــدم ذكره في مصادر ترجمته .. متى ألفه .. بواعث تأليفه .. هل تم نقله كاملاً .. طبعاته الأجنبية والعربية .. هل كان أقدم مؤلف لأبي محمد .. الطوق وثيقة تاريخية .. مدى الوثوق بأخبار أبي محمد عن المحبين .. استقراء طرائفـــه التاريخية .

٢ ــ الطوق من الناحية الأدبية : خصائصه الفنية . دراسة قصائده .. [في الحاشية : ابو محمد الأديب .. ابو محمد الناقد .. ابو محمـــد الشاعر ..

مطارحاته الأدبية .. مصادر أدبه وعوامل تكوينه] .

٣ – الطوق من الناحية العلمية : منهج أبي محمد في تأليفه .. أصالته .. الطوق والحياة الجديدة لدانتي .. الطوق و«روضة المحبين». الطوق و«الزهرة».. ابن حزم وستندال الايطالي .. تحقيق دراساته النفسية .. تحقيق دراساته الفلسفية .. تحقيق مسائله الشرعية .

٤ – تلخيص لجميع مسائل الطوق وشرح لغوامض مفرداته وجمله ..

« عزو الطوق الى أبي محمد » :

أبو محمد شديد الولاء لبني أمية ، يترحم عليهم ويسميهم الخلفاء المهديين ، والأئمة الراشدين ، إذا ذكرهم في شيء من مؤلفاته .. وفي الطوق يتكلم عنهم بأنهم الخلفاء المهديون والأئمة الراشدون بالأندلس ، ويترحم حتى على زياد بن أبي سفيان !..ويلم بأحوالهم وما ينفردون به في قصورهم مع عيالهم، ويتكلم عن أوصافهم لأنه رآهم ورأى من رآهم ، ويحدثه أبوه الوزير وغيره عن الناصر والحكم بأنهما كانا أشقرين أشهلين .. وكذلك هشام المؤيد ومحمد المهدي وعبد الرحمن المرتضى – رحمهم الله – رآهم مراراً ودخل عليهم ، فرآهم شقراً شهلاً [٢٠] .

فأبو محمد معروف أسلوبه إذا تحدث عن بني أمية ، وأبوه وزيرهم ، وهو وزير هؤلاء الثلاثة المذكورين .. فإذا وجدنا هذه المعالم في الطوق كانت مما يستأنس به ، لو لم تكن نسبة الطوق الى أبي محمد منتفية الشك ، ضاحية البرهان !

ولكن الأوضح من ذلك أن أبا محمد يقول في الطوق : وأقول أيضاً في قصيدة أخاطب فيها ابن عمي « أبا المغيرة عبد الوهاب بن أحمد بن عبدالرحمن ابن حزم بن غالب .. ويذكر في موضع آخر قصيدة لابن عمه هذا [٢١] .

وأوضح من ذلك تشكيه من قوم من مخالفيه شرقوا به فأساؤا العتب في

وجهه وقذفوه بأنه يعضد الباطل بحجته ، عجزاً منهم عن مقاومة ما أورده من نصر الحق وأهله وحسداً له (٢٢) .

وأوضح من ذلك أن فيه نفحات فلسفية وفقهية وابتهالات وعبارات موسومة .

وأوضح من ذلك أن أسانيده في بعض مباحثه الجديّة من هذا الكتاب أسانيد تعرفها في «المحلى» و«أصول الأحكام» وهو قد تحدث في الكتاب عن مشائخه المعروفين (٢٣) .

وأوضح من ذلك تاريخ أبي محمد لمحنته وانتقال أبيه الوزير ونكبة خيران وذكره لأخيه أبي بكر وما أشبه ذلك (٢٤)

وأوضح من ذلك أن الطوق مبدوء بـ :قال أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم. ومختوم بمثل ذلك .. والاوضح من ذلك ان في الطوق أشعاراً لأبي محمد نقلها مترجموه (٢٥) والاوضح من هذا كله أن الطوق لن ينكره من يقرأ كثيراً لابن حزم البتة .

ولم يتطرق الشك الى ثبوت الطوق عن أبي محمد بدالة من البحث المحقق ، وإنما هي وسوسة سمعتها من بعض طلاب العلم ، كما نقل في بعض الكتب انكار الطوق (٢٦) ولعل منكريه من عامة الفقهاء . وأحسب أن من يلتمس الشك سنداً من التحقيق يقول : ان المترجمين لابن حزم لم يذكروه ضمن مؤلفاته ، وأن أبا محمد عالم جليل يستبعد أن يؤلف في الحب .. وهما وسوستان لن تدوما حيث ذكرنا دلائل ثبوته وسنذكر ما يكشف عن هذين الاستشكالين .

عدم ذكر الطوق في المصادر القديمة :

الذين ترجموا لابن حزم لم يذكروا الطوق ضمن مؤلفاته ، ولم يذكره صاحب كشف الظنون .

بيد ان اهمال المؤرخين لذكره لا يصلح دليلاً على نفي نسبته الى أبي محمد لأمور .

أ – ان البراهين ضرورية في نسبته الى أبي محمد – كما مر آنفاً :

ب – أن مصادر ترجمة أبي محمد تعود كلها الى ما كتبه ابن صاعد وتلميذه الحميدي وابن العربي فإهمال هؤلاء الثلاثة لذكر الطوق –وهو رسالة صغيرة – لا يستلزم نفيها .

٣ – أن ابن القيم ذكرها في «روضة المحببين» وذكرها المقري في «نفح الطيب» وطبعها المستشرقون على أصول ثابتة .

٤ – أن المترجمين له في القديم يسردون أمهات مؤلفاته ثم يقولون بعد ذلك : وله رسائل كثيرة العدد في مواضيع شتى ، أو ما يشبه هذه العبارة ، فليكن الطوق من تلك الرسائل التي لم تُسَمَّ .

٥ – قال مروان بن حيان : « حتى كمل من مصنفاته في فنون العلم وقر بعير لم تعد أكثرها بادية لتزهيد الفقهاء وطلاب العلم فيها حتى لأحرق بعضها بأشبيلية ومزقت علانية [٢٧] » .

٦ – قال محمد ابن العربي : وربما كان للإمام أبي محمد ابن حزم شيء من تواليفه ألفه في غير بلده في المدة التي تجوّل فيها بشرق الاندلس فلم أسمعه [٢٨] .

قال أبو عبد الرحمن . والطوق ألفه أبو محمد في تجولاته هذه [٢٩] .

تأليفه في الحب غير مستغرب

١ – وقائع التاريخ قد تجري بغير حسبان ، ولقد مرّت دلائلنا على ثبوت الطوق عن أبي محمد وليس فيها ما يدفع .

٢ – مذهب أبي محمد : « ان الحب غير محظور في الشريعة » و «التأليف فيه من اللمم » فالتأليف في شيء غير محظور ليس مستغرباً [٣٠]

٣ – أبو محمد شديد الايمان بأن الحديث عن الحب ليس مما يثاب عليه، ويرى أن الأولى به مع قصر العمر أن لا يصرفه إلا فيما يرجو به رحب المنقلب (٣١) .

قال أبو عبد الرحمن : وتمتعوا معي بقراءة هذه العبارة يتحدث فيها أبو محمد عن نفسه : « وأنا أستغفر الله تعالى مما يكتبه الملكان ويحصيه الرقيبان من هذا وشبهه استغفار من يعلم أن كلامه من عمله، ولكنه إن لم يكن من اللغو الذي لا يؤاخذ به المرء، فهو ان شاء الله من اللمم المعفو، وإلا فليس من السيئات والفواحش التي يتوقع عليها العذاب .. وعلى كل حال فليس من الكبائر التي ورد النص فيها .

وأنا أعلم أنه سينكر عليّ بعض المتعصبين تأليفي لمثل هذا، ويقول خالف طريقته وتجافى عن وجهته ! . وما أحل لأحد أن يظن في غير ما قصدته . قال الله عز وجل : (إن بعض الظن إثم) والرسول – ص – يقوله : « انه أكذب الحديث »، وقد قال عمر ابن الخطاب – رضي الله عنه : ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك ما يغلبك عليه ولا تظن بكلمة خرجت من في امرىء مسلم شرا وأنت تجد لها في الخير محملا . فهذا – أعزك الله – أدب الله وأدب رسوله – ص – وأدب أمير المؤمنين. وبالجملة فإني لا أقول بالمراياة، ولا انسك نسكا أعجميا، ومن أدى الفرائض المأمور بها واجتنب المحارم المهنى عنها، ولم ينس الفضل فيما بينه وبين الناس فقد وقع عليه اسم الاحسان، ودعني مما سوى ذلك . وحسبي الله اهـ (٣٢)

٤ – الف غير أبي محمد – من الأئمة الأعلام – في الحب ! .

٥ – لأبي محمد أدلة ايجابية يستمدها من أقوال السلف، فأبو الدرداء يقول : أَجِمُّوا النفوس بشيء من الباطل ليكون عوناً لها على الحق، ويقول بعض السلف : من لم يحسن يتفق لم يحسن يتقوى، وفي بعض الأثر : أريحوا النفوس فإنها تصدأ كما يصدأ الحديد (٣٣) .

٦ – أبو محمد لايجعل العتق ينفذ إذا كان كلفا بحبها (٣٤) وهو يبيح الغناء

ويبيح بيع آلاته في رسالة له خـــاصة ، وفي كتابه « المحلى » (٣٥) قال أبو عبد الرحمن : فهلا شككنا في « المحلى » لأجل ذلك ؟ !

٧ – أبو محمد شاب أنيق نشأ نشأة مترفة وبيته فيه أكثر من مائة جارية تعلم عليهن القراءة والكتابة ، وما عرف غيرهن حتى بقل وجهه ، لأنـــه وزير ابن وزير .. فكان الطوق استجرارا للماضي وحنانا إلى عهد الصبا ، ولولا همة أبي محمد لمات مترفاً في هذا الجو الناعم ، والعيش الرغد .

٨ – رويت عن أبي محمد أخبار لا يستغرب معها ثبوت الطوق قال المقـّري وكتب بعض الأدباء الى ابن حزم الأندلسي بقوله :

سألت الوزير الفقيهَ الأجل ... سؤال مُدِلّ على من سأل
فقلت أيا خير مسترشد ... ويا خير من عن إمام نقل
أيحرم أن نالــني قبـلة ... غزال ترشف فيــه الغزل
وعانقني والدجـــا خاضب ... فبتنا ضجيعين حتى نصل
وجئتك أسأل مسترشداً ... فبين ُفديتَ لمن قد سأل

فأجابه ابن حزم بقوله :

إذا كان مـــا قلته صادقاً ... وكنت تحرّيتَ جهد المقل
وكان ضجيعك طاوى الحشا ... أعار المهاة احمرار المقـــل
قريب الرضا وله غنّة ... تميت الهموم وتحيى الجذل
ففي أخذِ أشهب عن مالك ... عن ابن شهاب عن الغير قل
بترك الخلاف على جمعهـــم ... على أن ذلك حلّ وبل (٣٦)

قال أبو عبد الرحمن : وأنا أستبعد أن يكون المسؤول والمجيب هو شيخنا أبو محمد ولا أستبعد أن يكون فقيها مالكيا ، ولكن لما قال : « الوزير الفقيه » حسب المقـّري أن لافقيه وزير غير شيخنا ، وفي «روضة المحبين» لابن قيم الجوزية عينات من هذه الفتاوى .

متى ألف الطوق ؟

كتب أبو محمد طوقه في شاطبة بعد وزارته للمستظهر الأموي .أما تحديد العام الذي كتبت فيه فيحدده بعضهم بعام ٤١١ هـ (٣٧). ويقول الشيخ محمد أبو زهرة : « من المؤكد أنها كتبت بعد سنة ٤١٧ لأنه جاء منها أخبار وقعت في تلك السنة تتصل بالمعركة بين خيران العامري والموفق أبي الحسن مجاهد (٣٨) ، ويرى أن أبا محمد كتبها وهو في حدود الأربعين (٣٩) . ويقول الدكتور طه الحاجري : « وهناك إشارة أخرى تجعل هذا الكتاب قبل سنة ٤٢٠ وهي السنة التي مات فيها أو في نحوها الحكم بن المنذر لأنه أشار اليه ابن حزم بقوله : وحكم المذكور في الحياة في حين كتابي اليك بهذه الرسالة (٤٠) .

على أن هناك إشارة ثالثة تقصر هذا المدى شيئاً وهي تقع في سياق قصيدته في مدح هشام بن محمد (٤١) وكان مدحه له قبل خلافته ، وإذن فقد وضعه قبل شهر ربيع الثاني سنة ٤١٨ هـ ، وهو تاريخ مبايعة هشام خليفة وتلقيبه أمير المؤمنين المعتد بالله (٤٢) .

الحواشي :

«١» أبو محمد من أكثر علماء الاسلام تصنيفاً وإليك مؤلفاته المطبوعة :

١ ــ المحلى ولم يؤلف مثله حتى اليوم في الفقه الاسلامي ، ولم تطب نفس سلطان الإسلام العز بن عبد السلام بالإفتاء حتى ملك نسخة منه . طبع بتحقيق الشيخ أحمد شاكر ــ رحمه الله ــ في أحد عشر جزءاً ثم طبع أخيراً بمطبعة الامام .

٢ ــ الاحكام لاصول الاحكام ولم يؤلف مثله في الفقه الاسلامي طبع بتحقيق الشيخ أحمد شاكر في ثمانية أجزاء ثم طبع بمطبعة الامام .

٣ ــ الفصل في الملل والنحل وقد نال استحسان المستشرقين وتحقيقاتهم لأنه أول عالم عنى بدرس الأديان والمقارنة فيما بينها وقد لفت الانظار إلى بعض المشاكل في أخبار التوراة مما لم يتنبه اليه أحد حتى ظهور المدرسة

النقدية الحديثة في القرن السادس عشر [أنظر تاريخ العرب المطوّل لفيليب حتي وزملائه ج ٣ ص ٦٢٢ – ٦٦٣ ط م دار الكشاف في بيروت عام ١٩٥١ م] . ولقد هاجمه ابن السبكي وقال انه من أسوأ الكتب لأنه ينسب أبا الحسن الأشعري الى البدعة [طبقات الشافعية ج ١ ص ٩٠–٩١]وكتب عنه بالنتيا في تأريخه عن الفكر الاندلسي بترجمة الدكتور حسين مؤنس ، وقال : انه نشر في القاهرة سنة ١٣٢١ وترجمه الى الاسبانية آسين بلاتيوس ونشره عام ١٩٢٧ – ١٩٢٨ م . قال أبو عبد الرحمن – عفا الله عنه – : وقد اطلعت على طبعتين من طبعاته العربية وأنا الآن ببداية مشروع لدرسه دراسة مستفيضة إن أعانني الله وجعل لي فسحة من العمر وهو خمسة أجزاء وتجدر الاشارة الى انه يشمل كثيراً من رسائل أبي محمد التيتفرد غالباً بالذكر في مصادر ترجمته .

٤ – مداواة النفوس وهي رسالة في أخلاق النفس طبعت عدة طبعات عربية وأجنبية وكتبت عنها دراسة بمجلة المنهل عدد ١١ المجلد ٢٨ القعدة سنة ١٣٨٧.

٥ – طوق الحمامة وهو موضوع بحثنا .

٦ – حجة الوداع طبعت مرتين ، الاخيرة بتحقيقالدكتور يحيى حقي .

٧ – النبذ في مسألة الاجماع طبع بتحقيق محمد زاهد الكوثرى .

٨ – رسالة في الرد على الهاتف من بعد .. ورسالة البيان عن حقيقة الإيمان ورسالة التوفيق على شارع النجاة باختصار الطريق .. ورسالة مراتب العلوم .. ورسالة في الغناء الملهى أمباح هو أم محظور .. ورسالة في ألم الموت وابطاله ومن هذه الرسالة فصل في معرفة النفس بغيرها وجهلها بذاتها .. ورسالة مداواة النفوس .. قال أبو عبد الرحمن : وجميع هذه الرسائل مطبوعة بتحقيق الدكتور احسان عباس ط م دار الهناء .

٩ – الرد على ابن نغرالة اليهودي .. الرد على يوسف الكندي في العلم الالهي ، الرد على المالكيين في رسالة لهم عنفوه فيها .. التلخيص لوجوه

التخليص .. طبعت جميع هذه الرسائل بتحقيق الدكتور احسان عباس ط م المدني بمصر .

١٠ – نقط العروس وقد نشره زايبولد في غرناطة سنة ١٩١١ وأعاد نشره سيكودي عام ١٩٤٦ ثم نشره الدكتور شوقي ضيف عام ١٩٥١ م بالقاهرة في مجلة كلية الآداب الجزء الثاني المجلد ١٣ سنة ١٩٥١ ولم أطلع عليه.

١١ – التقريب لحد المنطق نشر بتحقيق الدكتور احسان عباس .

١٢ – مسائل أصول الفقه طبع بمصر وعليه تعليق لابن الأمير الصنعاني والقاسمي ولم أطلع عليه ، ولكن استفدت ذلك من معجم المطبوعات العربية والمعربة من ظهور الطباعة حتى سنة ١٣٣٩ هـ جمع وترتيب الياس اليان سركيس ط م سركيس مصر ج ١ ص ٨٥ – ٨٦ .

١٣ – رسالة من علماء الأندلس وهي موجودة بكاملها في نفح الطيب ج ٤ ص ١٥٤ – ١٧١ ط م السعادة الاولى . وقد ترجمها إلى الانجليزية جايا نجوس .

١٤ – مراتب الاجماع طبع وبحاشيته نقد مراتب الاجماع لابن تيمية .

١٥ – مختصر ابطال القياس والاستحسان طبع بتحقيق الاستاذ سعيد الأفغاني بدمشق .

١٦ – جمهرة أنساب العرب طبع بتحقيق بروفنسال ثم بتحقيق عبد السلام هارون وللشيخ حمد الجاسر عليه تعليقات نشرت بمجلة المجمع العربي بدمشق في المجلد الخامس والعشرين عام ١٣٦٩ هـ ١٩٥٠ م ، بعنوان نظرة في كتاب جمهرة انساب العرب .

١٧ – جوامع السيرة ومعها خمس رسائل هي : القراءات المشهورة في الأمصار الآتية – مجيء التواتر .. اسماء الصحابه الرواة وما لكل واحد من العدد .. اصحاب الفتيا من الصحابة ومن بعدهم .. جمل فتوح الاسلام بعد رسول الله – ص – .. أسماء الخلفاء والولاة وذكر مددهم طبع دارالمعارف

بمصر بتحقيق الدكتورين احسان عباس وناصر الدين الأسد . أما كتب أبي محمد التي لا تزال بطي الخفاء ولم يبق إلا ذكرها فهي كما يلي :

١ ـ الامامة والخلافة في سير الخلفاء ومراتبها والندب والواجب منها .

٢ ـ فهرست شيوخه .

٣ ـ مجادلاته ومساجلاته مع أبي الوليد سليمان بن خلف الباجي .. قال بالنثيا : لم يبق لنا من تفاصيل هذه المجادلات الا صدى غير واضح نجده في بعض صفحات الفصل لابن حزم وأخبار متضاربة عـــن انهزام الباجى أو انتصاره على خصمه وكل مؤرخ يعرضها على حسب ما أملاه عليه شعوره نحو ابن حزم [تاريخ الفكر الأندلسي ص ٤٢٦] .. قال أبو عبد الرحمن : وقد ذكر زميلنا على معارف أبي محمد الشيخ أبو تراب الظاهري أن لديه مخطوطة من هذه المناظرة وذلك بجريدة البلاد عدد ٢٦٢١ في ١٨ / ٦ / ٨٧ بعنوان أفاويــق .

٤ ـ له ديوان شعر جمعه تلميذه الحميدي حسب حروف المعجم وذكر الدكتور يحيى حقي بمقدمته على حجة الوداع أنه عثر عليه وسينشره قريباً .

٥ ـ له كتاب في الشعر والموازنة بين الشعراء ينقل عنه الحميدي دائمـاً في الجذوة ذكر ذلك الدكتور شوقي ضيف بهامش المغرب في حلى المغرب ج ا ص ١٣٢ . قال أبو عبد الرحمن : وأكثر الأخبار والطرائف الأدبية التي في جذوة المقتبس يرويها الحميدي عن شيخه أبي محمد .

٦ ـ ذكر ابن ماكولا في الإكمال في باب الكناني أن أبا محمد طبيب وله رسائل في الطب ولم أطلع على الإكمال ولكن نقلت ذلك عن وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٣ ص ١٤ ط م السعادة عام ١٩٤٨ .

٧ ـ إبطال القياس والرأي والاستحسان والتقليد والتعليل ، وقد قيل أن المستشرق جولد تسيهر طبع منه جزءاً .

٨ ـ ذكر أبو حامد الغزالي أنه اطلع له على جزء في أسماء الله يدل على

سيلان ذهنه .

٩ – الايصال إلى فهم الخصال الجامعة لجمل شرائع الاسلام في الواجب والحلال والحرام والسنة والاجماع ، وهو من أكبر كتب أبي محمد في أربعة وعشرين مجلداً .. وقد أكمل ابنه أبو رافع كتاب أبيه المحلى من هذا الكتاب، ولقد اطلع عليه ابن السبكى .

١٠ – الجامع في صحيح الحديث باختصار الأسانيد والإقتصار على أصحها واجتلاب أكمل ألفاظها وأصح معانيها .

١١ – شرح أحاديث الموطأ .

١٢ – الصادع والرادع ، على من كفر أهـل التأويل من فرق المسلمين والرد على من قال بالتقليد .

١٣ – كتاب فيما خالف فيه أبو حنيفة ومالك والشافعي جمهور العلماء وما انفرد به كل واحد. ولم يسبق إلى مثاله .

١٤ – كشف الالتباس ما بين الظاهرية وأصحاب القياس .

١٥ – نكت الاسلام .

● الناسخ والمنسوخ : وقد طبع بهامش الجلالين وبهامش تفسير ابن عباس ونسبه إلى أبي محمد كل من : جرجي زيدان في تاريخ آداب اللغة ، وسعيد الأفغاني في كتابه عن ابن حزم ، والشيخ محمد أبو زهرة ، وصاحب الأعلام وصاحب معجم المؤلفين وكذلك السمان في تقدمته للمداواة ، وكذلك المقدم لكتاب الفصل .. أما المراجع القديمة فلم تذكر أن له كتاباً اسمـه الناسخ والمنسوخ .. وقد حققت عدم صحة عزو هذا الكتاب إلى ابي محمد في بحث نشر لي بجريدة البلاد عدد ٢٣٤١ في ٥ | ٧ | ٨٦ .

١٦ – الرد على ابن الافليلي في شعر المتنبي . ذكر ذلك الدكتور احسان عباس عـن الصلة .

١٧ – نقض العلم الالهي للرازي .

١٨ – الرد على اسماعيل بن اسحق .

١٩ – مخالفة المالكية لطائفة من الصحابة .

٢٠ – ترك الصلاة عمداً حتى يخرج وقتها .

٢١ – ذكر أوقات الأمراء وأيامهم بالأندلس .

٢٢ – الفضائح ذكره ياقوت في معجم البلدان في مادة – بربر – قال ذلك الدكتور احسان عباس .

٢٣ – رسالة في الوعد والرعيد مخطوطة اطلع عليها الدكتور إحسان .

أما مصادر ترجمة أبي محمد التي اطلعت عليها فكما يلي :

١ – ابن حزم للشيخ محمد أبي زهرة ٢ – ابن حزم للاستاذ سعيد الأفغاني ٣ – ابن حزم للدكتور طه الحاجري ٤ – ابن حزم للدكتور زكريا ابراهيم ٥ – جذوة المقتبس للحميدي ص ٢٩٠ – ٢٩٣ ط م السعادة والناشر مكتبة الحسيني ٦ – بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الاندلس لاحمد بن يحيى الضبي ط م روخس المسيحية سنة ١٨٨٣ م نشر مكتبة المثنى والخانجي وهذا الكتاب نسخة مماثلة لكتاب جذوة المقتبس ٧ – النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ج ٥ ص ٧٥ ط م دار الكتب المصرية ١٣٥٣ هـ ٨ – شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي ج ٣ ص ٢٩٩ – ٣٠٠ ط بيروت ٩ – معجم الأدباء لياقوت ج ١٢ ص ٢٣٥ – ٢٥٧ ط م دار المأمون ١٠ – البداية والنهاية ج ١٢ ص ٩١ – ٩٢ ط م السعادة في حوادث سنة ٤٥٦ وكتب التاريخ تورد ترجمة أبي محمد عادة في حوادث هذا العام. ١١ – أخبار العلماء للقفطي ص ١٥٦ .

١٢ – المعجب لعبد الواحد المراكشي ص ٣٠ – ٣٢ ، ١٧ – ٢١ – ١٢ مطمح الأنفس لابن خاقان ص ٥٥ – ٥٦ . ١٣ – وفيات الأعيان لإبن خلكان ج ١ ص ٣٤٠ – ٣٤٢ .

١٤ – تذكرة الحفاظ للذهبي ج ٣ ص ٣٢١– ٣٢٩ ط حيدر آباد الدكن

١٥ – لسان الميزان لابن حجر ج ٤ ص ٠٩٨ – ٢٠٢ .

١٦ – نفح الطيب للمقرى ج ٢ ص ٢٨٣ و ج ٥ ص ٩٦ .

١٧ – تاريخ الفكر الأندلسي لأنجد جنتالت بالنثيا تعريب الدكتور حسين مؤنس .

١٨ – المغرب في حلى المغرب بتحقيق الدكتور شوقي ضيف ص ٣٥٤.ج١

١٨ – نقص المنطق لابن تيمية ص ١٧ – ١٨ ط م السنة المحمدية .

١٩ – معجم المؤلفين لعمر كحالة ج ٧ ص ١٦ – ١٧ وفيه إحالة لكثير من مصادر ترجمة ابن حزم لم نذكرها هنا .

٢٠ – قصة الأدب في الأندلس لمحمد عبد المنعم خفاجة ط بيروت عام ١٩٦٢ ض ٢٠٣ وص ١٦١ – ١٦٧ .

٢١ – الصلة لابن بشكوال ج ٢ ص ٣٩٥ – ٣٩٦ ط عام ١٣٧٤ هـ ونشره الحسيني .

٢٢ – تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ط م دار الهلال ج ٣ ص ١٠٤ – ١٠٥ .

٢٣ – الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لأبي الحسن على بن بسام ط م لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة عام ١٣٥٨ ج١ ص ١٤٤ .

٢٤ – مقدمات كتب أبي محمد المطبوعة لناشريها ومحققيها .

٢٥ – تاريخ العرب في أسبانيا للدكتور خالد الصدفي ط م التعاون بدمشق عام ١٩٥٩ ص ١٥٦ – ١٦٦ ويبدو أنه ليس لهذا المؤلف أثر في الترجمة بدليل انه يجري على أغلاط غيره .

٢٦ – دائرة معارف القرن العشرين لفريد وجدي ج ٣ ص ٤٣٠ – ٤٣٢ الطبعة الثانية عام ١٣٤٢ هـ .

٢٧ ـ دائرة المعارف الحديثة لأحمد عطية الله ١٥١ الطبعة الأولى عام ١٩٥١ والعجيب انه قال : توفي مقتولاً عام ٤٥٦ هـ . وهذا خطأ .

٢٨ـ تاريخ العرب مطول للدكتور فيليب حتي ج ٣ ص ٦٦٢ ـ ٦٦٣ط م دار الكشاف ببيروت عام ١٩٥١ .

٢٩ ـ سطران في اللباب في تهذيب الانساب لابن الأثير نشره المقدسي عام ١٣٥٧ ج ١ ص ٢٩٧ .

٣٠ ـ طبقات الامم لابن صاعد ص ٩٩١ الطبعة الأولى .

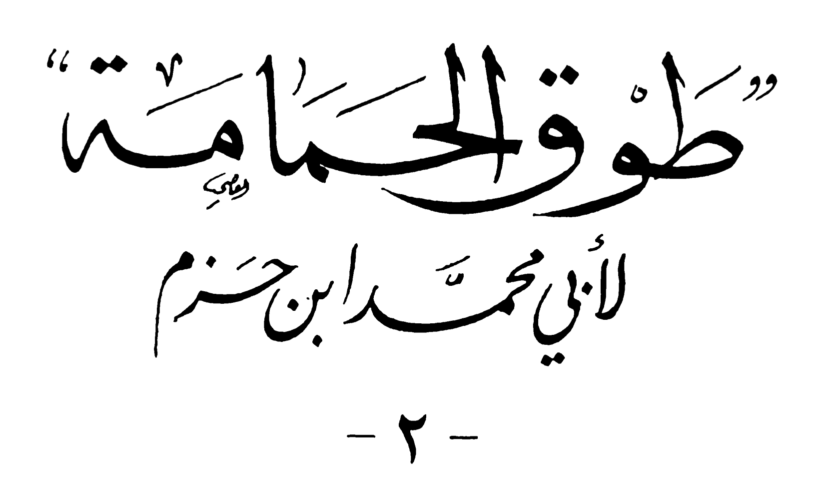
٣١ ـ الأعلام للزركلي ج ٥ ص ٥٩ الطبعة الثانية .

٣٢ ـ ظهر الاسلام وضحاه .

٣٣ ـ كشف الظنون في عدد كثير من الصفحات حسب تأليفات أبي محمد وثمة مصادر سأذكرها لاحقاً ـ بإذن الله .. وهناك من المصادر ما لم أطلع عليه لأنه لا يزال مخطوطاً كترجمة أبي محمد في مجلد خاص من سير أعلام النبلاء للذهبي وككتاب الاعلام بتاريخ الاسلام لابن قاضي شهبة وكالاكمال لابن ماكولا.. وكترجمة الشيخ أحمد شاكر لأبي محمد في مجلدين لا تزال مخطوطة .. وترجمته أيضا للشيخ أبي تراب الظاهري ذكر ذلك في جريدة البلاد عدد ٢٦٢١ في ٨٧/٦/١٨ .. وهناك من المصادر ما لم أطلع عليه لأنه لم يعرب بعد كترجمة آسس بلاثيوس، وكتاب جولدزيهر عن الظاهرية ، وبحوث المستشرقين في مجلة الأندلس ومجلة غرناطة ، ومجلة الجمعية المشرقية الألمانية م ٦٩ ص ١٩٣ ولعل الله يتيح لهذه البحوث من يعربها .. وهناك من المصادر ما لم نذكر اكتفاء بذكر الاستاذ كحالة له في معجمه .. وهناك من الدراسات التي تنشر في المجلات العربية ، سنذكره في موضعه .

(للبحث صلة)

الرياض : ابو عبد الرحمن بن عقيل



- ٢ -

قال أبو عبد الرحمن : إن اعتداء أبي الحسن مجاهد على خيران صاحب المرية : كان في ربيع الثاني عام ٤١٧ هـ، وقد ذكر ابو محمد في طوقه[ص٨٥] انقطاع الطرق بسبب هذه الحرب ؛ فلا بد أن أبا محمد ألّف الطوق بعد ربيع الثاني عام ٤١٧ هـ .. ولا يجوز أن يكون تأليفه بعد شهر ربيع الثاني عام ٤١٨ ، لأنه أشار الى قصيدة له [ص ١٧١] في مدح هشام بن محمد ، وعرّفه بأنه : « أخو امير المؤمنين عبد الرحمن المرتضى » ولم يقل « امير المؤمنين هشام بن محمد » .. وإذاً فقد كتب أبو محمد الطوق قبل أن يكون هشام امير المؤمنين ، ولم يكن امير المؤمنين إلا في ٤١٨/٤٢٥ هـ وهو تاريخ مبايعته .. وبهذا يثبت – قطعاً – أن ابن حزم ألف طوق الحمامة فيما بين ربيع الثاني عام ٤١٧ هـ وربيع الثاني عام ٤١٨ هـ وهو ما استطعنا تحديده .

ودليل – آخر – على أن أبا محمد كتب طوقه قبل ربيع الثاني عام ٤١٨: هو ان ابا محمد كان وزيراً لهشام بن محمد الذي بويع خليفة في هذا العام ، وفي الطوق [ص ١٥٤] أنه كتبه وذهنه متقلب ، وباله مهصر بما هو فيه من نبوّ الديار والجلاء عن الأوطان وتغير الزمان ونكبات السلطان . ا هـ .

قال أبو عبد الرحمن : وهذا كان قبل عودته الى قرطبة وبعد نكبة خيران له ، فلو كان كتبه في خلال وزارته لما كان بهذه الحال التي ذكرها من تقلب ذهنه وتهصر باله .

وقد أشار الدكتور عبد الكريم خليفة في كتابه ابن حزم [ص٥٩] : أن ابا محمد ألف كتابه في شاطبة ،وكانت إذ ذاك خاضعة لحكم مبارك الصقلبي.

قال أبو عبد الرحمن : هذا خطأ ، لأن مباركاً توفي عام ٤٠٨ هـ (البيان المغرب لابن عذارى ج ٣ ص ٣٠٢) وكيف يستقيم هذا وهو يؤرخ لأبي محمد فيما بعد ٤١٦ هـ ؟!

بواعث تأليفه :

ألفه استجابة لكتاب صديق ورد اليه من المرية وهو بمسكنه في شاطبة : يكلفه تصنيف رسالة في صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه وما يقع فيه وله،على سبيل الحقيقة ، لا متزيداً ولا مفتناً ، ولكن بحسب وقوعه[ص٢] .

وذلك الصديق رعى له « حق النشأة ومحبة الصبا » [ص٢] ويعلق الدكتور طه الحاجري على ذلك بقوله :

« من الممكن أن يقال : ان هذا الذي قدم به كتابه ليس إلا أسلوباً من الاساليب التقليدية في تقديم الكتب ، وان الأولى أن نغفل مثل هذه الأشكال التي جرى عليها المؤلفون ، ونمضي الى ما وراءها في تعرف الحوافز الحقيقية التي تثير في نفوسهم الرغبة نحو كتابة الكتاب أو ذاك .. فإذا صح أن صديقه هذا اقترح عليه - وليس ما يمنع منه - فقد صادف إذن اقتراحه هوى في نفسه .. وهو وصديقه يشتركان في ذكريات عهد النضارة ؛ لأنه رعى له « حق النشأة ومحبة الصبى » [ابن حزم للحاجري ص ٥٦] .

قال أبو عبد الرحمن : ربما اتخذ أبو محمد رغبة صديقه المصطنعة عذراً في كتابة هذا البحث غير المرغوب عند الفقهاء والعامة ، ولكن إذا صح ما ذكره الدكتور عبد الكريم خليفة : أنه ألف الطوق استجابة لرغبة صديقه ابي بكر بن إسحاق : لم يكن ثمة مجال لادعاء انه كتبها بالأسلوب التقليدي .

قال ابو عبد الرحمن : ولكن لم أجد لما ذكره الدكتور خليفة سنداً لا من الطوق ولا من المصادر الأخرى التي ذكرت ابن حزم .. بل وجدت ما يضعف هذا الرأي ؛ فإن أبا محمد قال [ص ٢٢] : « حدثني صاحبنا أبو بكر محمد بن احمد بن اسحاق عن ثقة » ؛ فلو كان الطوق مكتوباً لأبي بكر لقال : « حدثتني » !

وقال أبو محمد [ص ١] : فإن كتابك وردني من مدينة المرية الى مسكني بحضرة شاطبة تذكر من حسن حالك ما يسرني ، وحمدت الله عز وجل عليه واستدمته لك واستزدته فيك ثم لم ألبث أن طلع عليّ شخصك وقصدتني بنفسك على بعد الشقة وتنائي الديار وشحط المزار .. الخ . ا هـ . ولم يذكر اسم هذا الصديق !

أما ان اقتراح صديقه هذا صادف هوى في نفسه فأمر ظاهر ؛ لأنه استجاب !

وانما المهم : أن يقال : ولماذا صادف هوى في نفسه ؟!.

والجواب نلتمسه في هذه الأمور :

١ – « أنه قصد تأليفه الى الفن .. الى فن تصوير الحب والتعبير عنه ؛ فقد ألف ابن حزم كتابه في البلاغة اذن وقصد به الى ان يعلم الشعراء والكتاب .. والشعراء خاصة كيف يتصورون الحب وكيف يصورونه وكيف يصفونه في الشعر والنثر ؟ .

وآية ذلك : هذه النماذج الشعرية التي يبثها في كل فصل من فصول الكتاب.

هذا رأي الدكتور طه حسين [ألوان ص ١١٧ ط دار المعارف]

٢ ما يفيض به الطوق من أخبار المحبين التي حضرها ابو محمد : شاهد على انه يكتب عن ذكرياته » ولهذا نقول : صادفت رغبة ذلك الصديق هوى في نفس ابي محمد ، لأنه طلب منه ان يكتب عن ذكرياته ! .

٣ – محمد بن داود الظاهري شيخ ابي محمد وابن شيخه ، وله كتاب «الزهرة» في الحب ، ومنذر بن سعيد البلوطي الظاهري من المحبين..فتأثر ابن حزم الظاهري بشيوخ الظاهرية أمر يصلح للتعليل ! .

٤ – الحديث عن الألفة والألاف في «الطوق» كله كان في حدود المذهب العذري وله صدى في نفوس الناس في المشرق والمغرب ، وهو الذي يليق بكاتب مسلم كالامام ابن حزم ، فذلك الصدى يصلح أيضاً للتعليل ! .

٥ – لو لم يكن محمد بن داود الظاهري إماماً لابن حزم ، الا انه مشرقي وأهل الأندلس يحاكون المشارقة كثيراً في مؤلفاتهم .. برهان ذلك ان ابن حزم يقول : « ودعني من اخبار الأعراب والمتقدمين ، فسبيلهم غير سبيلنا وقد كثرت الاخبار عنهم ، وما مذهبي أن أنضي مطية سواي ، ولا اتحلى بحلى مستعار » . اه [ص٣] .. وكأنه بهذا يعارض منهج ابن داود ويعرض به.. قال أبو عبد الرحمن : وكل هذه الامور قوية الاحتمال وظاهرة الرجحان وليس ثمة ما ينفيها .

علة التسمية :

قال الدكتور عبد الكريم خليفة : « واكبر الظن أنه استوحى اسم « طوق الحمامة » من الباب الثالث والثلاثين من كتاب « الزهرة » : (في نوح الحمام أنس للمنفرد والمستهام) حيث يحكي المؤلف كثيرا من القصص ويورد بعدها اشعاراً منتخبة . ومما أورده :

مطوقة لا تفتح الفم بالذي تقول وقد هاجت لي الشوق اجمعا
تؤلف أحزانا تفرقن بالهوى اذا وافقت شعب الفؤاد تصدعا

وقال آخر :

مطوقة طوقا ترى بفصوصه روائع ياقوت فهن فصول

قال أبو عبد الرحمن : هذا أصغر الظن لا أكبره !

هل تم نقله كاملا ؟

يعود الشك أقرب الى اليقين عند الاستاذ ابراهيم الابياري المقدم لطوق الحمامة : في نقل هذا الكتاب كاملا ، فربما كانت طبعاته الموجودة الآن ناقصة..وأن الكتاب كان من بين ما امتدت اليه الأيدي وأن ما وجد منه من بين يدي فئة كان غير ما وجد منه عند غيرهم زيادة ونقصاً « وان صح هذا والافقد يصح غيره ، ولعل تلك اللفتة تكاد تملي علينا بان الكتاب منقوص ولا يزال منه في بطون الغيب أوراق لم يسعها مخطوط ولم تتصل بتدوين مدون ولا يعلم الا الله مصيرها » .اه

وحجة الاستاذ الابياري : أن صاحب « نفح الطيب » أورد هذا الخبر : « قال ابن حزم في طوق الحمامة انه مر يوما هو وأبو عمر بن عبد البر صاحب « الاستيعاب » بسكة الحطابين بمدينة إشبيلية فلقيهما شاب حسن الوجه ؛ فقال ابو محمد : هذه صورة حسنة ، فقال له ابو عمر : لم تر إلا الوجه ،فلعل ما سترته الثياب ليس كذلك : فقال ابن حزم ارتجالا :

وذي عذل فيمن سباني حسنه ... يطيل ملامي في الهوى ويقول
أمن أجل وجه لاح لم تر غيره ... ولم تدر كيف الجسم أنت عليل
فقلت له: أسرفت في اللوم فاتّئد ... فعندي ردّ — لو أشاء — طويل
ألم تر أني ظاهريّ وانني ... على ما أرى حتى يقوم دليل

ومع هذا فتلك القصة غير موجودة في الطوق ، فكيف ينسب المقّري الى الطوق ما ليس فيه ان لم تكن نسخه تختلف نقصاً وزيادة ؟ .

قال ابو عبد الرحمن والراجح عندي ان الطوق منقول بكامله بدليل ان الكتاب مستهل بتحميد أبي محمد ومختتم بابتهالاته ، وبدليل أن أبا محمد حصر في مقدمة كتابه الأبواب التي هي مداخل الحديث في الحب،فاستوفى الحديث عنها ، ولسنا نفقد من الطبعات الموجودة بين أيدينا أي باب من تلك الابواب التي حصرها بمقدمته .

أما القصيدة التي نسبها المقّري الى الطوق وهي غير موجودة فيه فمحتملة أمرين :

أحدهما : أن المقري وهم في نسبتها الى الطوق ولم يهم في نسبتها الى أبي محمد،لأنها عزيت له في«الذخيرة»لإبن بسام وفي «المطمح» لإبن خاقان وفي«البيان المغرب» لابن سعيد وفي «الوفيات»لإبن خلكان،ولكنهم لم ينسبوها الى الطوق.

وثانيها : أن بعض النساخ أسقط هذه الأبيات لما فيها من قالة قد تؤثر على وقار أبي محمد وسمعته العلمية لأن في القصة تعشق أمرد ، وتكون النسخة التي اطلع عليها المقري لم تُسقط هذه الأبيات .. وكلا الأمرين محتمل ! .

قال أبو عبد الرحمن : ولا يحسبن متسرع أني أناقض نفسي اذ رجحت ان للطوق نقل كاملاً ثم احتملت أن هذه القصيدة قد حذفت !! .. لأن معنى ذلك الترجيح وذلك الاحتمال هو التدليل على حذف القصيدة - إن ثبت انها محذوفة - لا يحتم حذف شيء آخر غيرها حتى يقال : ان الطوق غير كامل، ولا سيما ان مادة الموضوع التي حددها ابو محمد في صدر كتابه مستوفاة في ثناياه ! .

« طبعاته الأجنبية والعربية » :

قال الدكاترة زكي مبارك : « فحينما طبع في ليدن سنة ١٩١٤ م بعناية المأسوف عليه « بتروف » أحدث رجة عنيفة جداً في أوربا وتناولته المجلات الأدبية بالنقد والتحليل ، وما كاد ينشر حتى أقبل على نقده وتصحيحه جماعة من كبار المستشرقين أشهرهم جولدزيهر ودوزي وبروكلمان والدكتور سنوك هروجرنيه والمسيو مرسيه .. وتسابق المستشرقون الألمان والنمسويون والهولنديون والفرنسيون والإنجليز والأمريكيون الى استغلال ذلك الكتاب وتلخيصه أو ترجمته والتعليق عليه » [النثر الفني في القرن الرابع ص ١٦٧ ج ٢] .

وقد اعتنى به المستشرقون السوفييت [المستشرقون لنجيب العقيقي ص ٩٢٤ ج ٣] .

وقد نشره بتروف لأول مرة عام ١٩١٤ م بمقدمة فرنسية وفهارس وطبع بليدن [المستشرقون ص ٩٤٢ - ٩٤٣ ج ٣] وآنجل جنثالث بالنتيا في ثبت مراجعه] .

ثم ترجمة المستشرق الألماني نيكل الى الانجليزية من المخطوط الوحيد الذي نشره بتروف وذلك في باريس سنة ١٩٣١ [المستشرقون ص ١١٠٤ ج ٣ وبالنثيا في ثبت مراجعه] .

وترجمه الى الروسية المستشرق الروسي ساله في عام ١٩٣٣ [المستشرقون ص ٩٦٤ ج ٣ بالنتيا في ثبت مراجعه] .

وترجمه إلى الاسبانية غرسيه غوموس بمدريد عـــام ١٩٥٣ [بالنتيافي ثبت مراجعه] .

ونشر المستشرق الفرنسي ليون بيرشه كتاباً بعنوان: (ابن حزم وطوق الحمامة) عام ١٩٤٧ ونشر كتاباً آخر بعنوان: (حول نص طوق الحمامة [المستشرقون ص ٢٧٣ ج ١] .

ونشر المستشرق الفرنسي ليفى بروفنسال كتاباً بعنوان : إعادة قراءة طوق الحمامة عام ١٩٥٠ [المستشرقون ص ٢٧٥ – ٢٧٦ – ١٨٢ ج١]

وممن كتب عن طوق الحمامة فرانشيسكو جابربيلى بعنوان : ابن حزم وكتابه طوق الحمامة عام ١٩٤٩ .

[المستشرقون ص ٣٩٤ – ٣٩٦ ح ١] .

وترجمه المستشرق الاسباني اميليو جارتياجويث إلى الاسبانية ونشره عام ١٩٥٢ .. وله : كتاب طوق الحمامة وديوان الصبابة ، وهو بحث نشره في مجلة الاندلس [المستشرقون ص ٦١٠ ج ٢] .

ونشر بروكلمان كتاباً الفه بعنوان : تحقيق طوق الحمامة وتفسيره عام ١٩٣٢ [المستشرقون ص ٧٨١ ج ٢] .

وترجمه المستشرق الروسي ايفان كوزمين عام ١٩٣٣ [المستشرقون ص ٩٤٢ ج ٣] .

« وكان تصحيحه يعد رياضة أدبية لكبار المستشرقين فما زالوا يبدأون

ويعيدون حتى جاء المسيو « مرسيه » فوضع بحثا هامـــا جداً بالفرنسية استدرك به كل ما فات أولئك المصححين من الأغلاط .

وقد رأى أحد المصريين وهو في باريس أن يداعب المسيو مرسيه فعادالى طوق الحمامة فراجعه مراجعة دقيقة كشف بها طائفة من الاغلاط غفل عنها المسيو مرسيه حين أراد أن ينطق بالقول الفصل في تحرير ذلك الكتاب ثم

قدمت تلك التصحيحات الى جامعة باريس فأقرها المسيو « دي مومين » والمسيو « ماسينيون » [النثر الفني للدكتور زكي مبارك ج ٢ ص ١٦٦ – ١٦٧] أما طبعاته العربية فقد طبع طبعة شعبية باسم « أصول الحب » في سلسله كتب للجميع عام ١٩٥٢ [مقدمة الجمهرة لعبد السلام هارون ص١٠] وطبع بدمشق عام ١٣٤٩ طم البرهان وطبع بالقاهره طم الاستقامة بالقاهرة عام ١٩٦٤ وطبع أخيراً ببيروت طبعة تجارية غير محققة كثيرة الأغلاط .

هل كان الطوق أول تأليفه : ؟

يذهب الدكتور عبد الكريم خليفة [ص١٨٧] تبعا لدائرة المعارف الاسلامية إلى ان الطوق من أوائل تصانيف ابن حزم .. ويقول الشيخ محمد أبو زهرة :

«لم يكن آخر كتبه أو من آخر ما ألف، بل كان أول ما ألف، وعباراته تدل على أنه كتبه ورقراق الشباب لا يزال في نفسه وجسمه ، ولقد ادعى بعض الباحثين أنه أول كتاب ألفه ، وأنه ألف بين سنة ٤١٨ – ٤٢٢ ﻫ ولكننا لا نجد دليلا على أنه أول ما ألف ولا نجد دليلا على تعيين ذلك ، ولكنه على أي حال كتب في صدر حياته [ابن حزم لابي زهرة ص ٤٧ بتصرف]

وإنه ليغلب على الظن انه كتبها في آخر الشباب وابتداء الكهولة فهي تدل في ثناياها [على] أن الكاتب مملوء حيوية وقوة ولكنها حيوية ناضجة وقوة تجاوزت ميعة الشباب وغرارته، ثم أنه كتب هذه الرسالة وقد صارت له شهرة علمية ومقام في الفقه والحديث..وقد جاء في «الطوق» ان قوماً يحسدونه لما كان يلحن بالحجة فلا يجدون لها مدفعا .. وفي الطوق تصاون واعتذار عن كلامه في الحب .. وفيه انه ألفه وهو مغترب مشرد .. وكل ذلك ـ غالباً ـ انما يكون في آخر الشباب أو في الكهولة ، ولذلك يظهر انه كتب هذه الرسالة في حدود الأربعين . [ابو زهرة ص ١٦٨ ـ ١٦٩ بتصرف في اللفظ]

قال أبو عبد الرحمن : ليس لدينا ما يقطع على تحديد التاريخ الذي ألف فيه أبو محمد طوقه بعام معين ولكننا مبينون أمورا : —

١ — قال أبو محمد في التقريب [ص ٢٠٠] : وما الفنا كتابنا هذا [يعني التقريب] وكثيراً مما الفنا الا ونحن مغربون مبعدون عن الوطن والأهل والولد ، مخافون مع ذلك في انفسنا ظلماً وعدواناً . ا هـ فالتقريب والطوق وغيرهما من الكتب : الفها في ذلك الظرف .. ويذكر [التقريب ص ٢٠٤] أن لصديقه ابن شهيد تأليفاً في البلاغة ، وقد توقف ابن شهيد عن التأليف من الشلل الذي أصابه منذ عام ٤٢٤ هـ .

ويذكر [التقريب ص ١٩٩] : أن المستكفى قد سجنه ، وكان هذا عام ٤١٤ هـ .. فالتقريب ألفه بعد عام ٤١٤ هـ قطعاً ، وألفه قبل عام ٤٢٤ قطعاً أيضاً .

وقد حددنا تأليف الطوق فيما بين ٤١٧ — ٤١٨ هـ كما مضى ، وإذا فمن المحتمل ان يكون التقريب قبل الطوق أو أنهما ألفا في أوقات متقاربة .. ويؤيد ذلك : أن أبا محمد يتحدث عن نظريات فلسفية ومنطقية مما يدل على سابق خبرة وتأليف فيها .

وفي التقريب يحيل الى كتابه الفصل، وأخلاق النفس، والسياسة، فكل هذه الرسائل : منها ما هو سابق الطوق قطعاً ، ومنها ما هو في وقت مقارب .

٢ — رسالته في فضل الأندلس ألفها بعد عام ٤٢١ هـ قطعاً لانها استجابة لرغبة أبي عبد الله محمد بن القاسم الذي حكم البونت عام ٤٢١ ، وألفها قبل عام ٤٢٦ هـ قطعاً لانه ذكر فيها ان صديقه ابن شهيد لا يزال حياً وهو لم يمت الا في عام ٤٢٦ هـ .. وفي هذه الرسالة يذكر كتابه التقريب ويقول : « ولنا على مذهبنا الذي تخيرناه من مذاهب اصحاب الحديث كتاب في هذا المعنى ، وهو وان كان صغير الجرم قليل عدد الورق يزيد على المائتين زيادة يسيرة فعظيم الفائدة ، لأنا اسقطنا فيه المشاغب كلها ، وأضربنا عن التطويل جملة

واقتصرنا على البراهين المنتخبة من المقدمات الصحاح الراجعة الى شهادة الحس وبديهة العقل بالصحة . ولنا فيما تحققنا به تآليف جمة منها ما قد تم ومنها ما شارف التمام ومنها ما قد مضى منه صدر ، ويعين الله تعالى على باقيه . اهـ [نفح الطيب ج ٤ ص ١٧١] .

قال أبو عبد الرحمن: وقد بينا أن الطوق ألف في حدود عام ٤١٨ هـ وأن رسالة علماء الأندلس الفت في حدود ٤٢١ هـ ، وهو يقول : « ولنا تآليف جمة منها ما قد تم» فمستبعد أن تكون هذه التآليف الجمة الفت فيما بين ٤١٨-٤٢١ هـ ، وقد بينا ايضاً أن تأليف التقريب محتمل سبقه لتأليف الطوق وفيه احالات الى كتب أخرى لابن حزم .

٣ - وفي الطوق مادة علمية دسمة تدل على سابق خبرة في التأليف وعلى ان للمذكور شهرة علمية .

٤ - في قول الشيخ أبي زهرة الآنف الذكر هذه العبارة : بل كان أول ما ألف. ثم يقول بعد ذلك بجمل : ولكننا لا نجد دليلاً على انه اول ما الف! فكيف هذا ؟!

٥ - ويقول أبو زهرة: انه الفه في حدود الأربعين . قال أبو عبدالرحمن: في تحديدنا لتاريخ العام الذي الف فيه ابو محمد طوقه . تعرف انه لم يتجاوز الرابعة والثلاثين قطعا .

الطوق وثيقة تاريخية :

ان الطوق «يقدم لنا تفاصيل عظيمة القيمة عن حياة الاندلسيين في بيوتهم خلال القرن الحادي عشر فيصور لنا المآسي التي كانت تحدث في بيوت المساتير خفية تحت ستر شتى على أيدي بعض صنوف النساء كالطبيبة والحجامة والسرافة والدلالة والماشطة والمغنية والكاهنة والمعلمة والمستخفة والصناع في المغزل والمنسج وما أشبه ذلك» .

[تاريخ الفكر الأندلسي للعلامة الاسباني آنجل جنثالث بالنشيا تعريب حسين مؤنس ص ٢٣٦] .

وقال ابو عبد الرحمن : وفي الطوق حديث عن قرطبة وما يجري في سوق العطارين ، وفيه أخبار نادرة عن بعض الأعلام وفيه أحداث غامضة من تاريخ ابن حزم وأسرته وفيه عينات من شعره ، وعلى أي حال فهو أثر جيد يحتفى بخبايا من حياة ابي محمد التاريخية والعلمية والأدبية والخلقية وهو الذي كان ملء سمع زمانه وبصره ،وانه لهذا لجد مهم لمن يريد ان يترجم له.. وسنكتفي بتبويب هذه التحف التاريخية وتقصيها مستثنين أخبـــار الآلاف الواردة في الطوق ؛ فنحن نشك في اعتبارها وثائق تاريخية ، وهذا ما نوجز كلمة فيه .

الوثوق بأخباره عن المحبين :

قيد ابو محمد منهجه في مطلع رسالته بأنه لن يتحلى بحلى مستعار ،وأنه لن ينضى مطية سواه فلا يذكر الا ما شاهده فإذا قرر حقيقة علمية عن مسائل الحب استشهد عليها بواقعة حبية يعنون لها بكلمة « خبر » وهذه الأخبار على ثلاثة أقسام :

قسم يسند خبره الى بعض مشائخـــه وأصدقائه كقوله : حدثتني امرأة أثق بها ، ولقد حدثني ثقة من اخواني ، وحدثني بعض اخواني، ولقد حدثني القاضي يونس بن عبدالله وحدثني ابو بكر محمد بن بقي الحجري .. وما أشبه هذه الاسنادات . وقسم شاهد خبره وحضره ، وسمي المحبين باسمائهم : كخبره عن بنت زكريا بن يحيى التميمي بن برطال التي نامت مع زوجها يحي بن محمد في دثار واحد ليلة مات [ص ٦٥] وكخـبره عن الجواري اللاتي متن بحب صديقه ابن ابي عامر [ص٧٣—٧٥] وكخبره عن امرأة اخيه ابي بكر وكخبره عن صاحبه الطنبي الذي استهام بغلام .

قال ابو عبد الرحمن : وهذان القسمان حكمهما حكم اي خبر أو طريفة ترد في كتب الأدب والتاريخ يتيسر التوثق من صحتهـا بالاقتناع من صدق وثقة الراوي .. ومثل هذه الطرائف لا يمكن ان تكون صحيحـــة او مشهورة

متداولة لأن ابا محمد لن ينسب الى أناس معاصرين اخباراً منقولة ولو حدث ذلك لأكذبوه بعد ان يذيع كتابه، ولكن المؤرخين مجمعون على صدقه وأمانته

أما القسم الثالث فهو وقائع كان فيها ابو محمد شاهد عيان ولم يسم المساتير بأسمائهم ، وقد أحصينا هذه الوقائع من رسالته الطوق ، وحاصلها كما يلي :

* – شاهد ابو محمد يوماً محبين في مكان قد ظننا أنهما انفردا فيه وتأهبا للشكوى فاستحليا ما هما فيه من الخلوة ولم يكن الموضع صحي فلم يلبثا أن طلع عليهما من كانا يستقلانه .. فلو رأيت الفتى المحب وقد تمازج الاسف البادي على وجهه مع الغضب لرأيت عجباً .. ويعرف من هم ان يباطش رقيباً هذه صفته ص ٥١ .

* – ويعرف من رقب على بعض من كان يشفق عليه رقيبا وثق به عند نفسه فكان اعظم الآفة عليه وأصل البلاء فيه ص ٥٢ .

* – ومن طريف معاني الرقباء أنه يعرف محبين مذهبهما واحد في حب محبوب واحد بعينه ، فلعهده بهما كل واحد رقيب على صاحبه ص ٥٣ .

* – وللوشاية بين المحبين ضروب من التنقيل : منها ان يذكر الواشي للمحبوب عمن يحب انه غير كاتم للسر .. ولقد شاهد ابو محمد هذا بعينه لبعض المحبين مع بعض من كان يحب ، وكان المحبوب شديد المراقبة عظيم الكتمان وكثر الوشاة بينهما حتى ظهرت اعلام ذلك في وجهه .

فلو شاهدت مقام المحب في اعتذاره لعلمت أن الهوى سلطان مطاع وبناء مشدود الاواخي وسنان نافذ ، وكان اعتذاره بين الاستسلام والاعتراف والانكار والتوبة والرمي بالتقاليد فبعد لأي ما صلح الأمر بينهما ص ٥٤ .

* – ويعرف من كان ممتحناً بهوى في بعض المنازل المصاقبة فكان يصل متى شاء بلا مانع ولا سبيل غير النظر والمحادثة زماناً طويلاً الى ان ساعدته الأقدار بإجابة، ولعهد أبي محمد به قد كاد يختلط عقله فرحا وما كاد يتلاحق كلامه سروراً ص ٦١ .

* – وما في الدنيا حالة تعدل محبين اذا عدما الرقباء وأمنا الوشاة وسلما من البين.. الخ ولقد رأى ابو محمد من اجتمع له هذا كله إلا أنه كان دهى فيمن كان يحبه بشراسة الأخلاق ودالة على المحبة فكانا لا يتهنيان العيش ولا تطلع الشمس في يوم الا وكان بينهما خلاف فيه، وكلاهما كان مطبوعاً بهذا الخلق لثقة كل واحد منهما بمحبة صاحبه الى ان دنت النوى بينهما فتفرقا بالموت المرتب لهذا العالم . ص ٦٣ .

* – ويعلم ابو محمد فتى وجارية وكان يكلف كل واحد منهما بصاحبه؛ فكانا يضطجعان اذا أحضرهما أحد وبينهما المسند العظيم من المساند الموضوعة عند ظهور الرؤساء على الفرش، ويلتقي رأساهما وراء المسند، ويقبل كل واحد منهما صاحبه ولا يريان، وكأنهما انما يتمددان من الكلل؟.. ولقد كان بلغ من تكافئهما في المودة أمراً عظيماً الى ان كان الفتى المحب ربما استطال عليها . ص ٦٤

* – ويعرف من هام قلبه بتناء عنه نافر منه، فقاسى الوجد زماناً طويلاً ثم سنحت له الأيام بسانحة عجيبة من الوصل أشرف بها على بلوغ أمله فحين لم يكن بينه وبين غاية رجائه إلا كهولاء عاد الهجر والبعد إلى أكثر ما كان قبل ص ٧٥ .

* – ومن أرفع ما شاهده أبو محمد من الوفاء وأهوله قصة رآها عياناً وهو انه يعرف محباً رضي بقطيعة محبوبه الذي كان الموت عنده أحلى من هجره ساعة، وذلك في سبيل سر أودعه – بالبناء المجهول – ولم يبده حق لمحبوبه الذي التزم يميناً غليظة ألا يكلم هذا المحب الوامق ولا يكون بينهما خبر إلا أن يفضح له ذلك السر – وكان صاحب السر غائباً – فأبى المحب فضح السر وتمادى على كتمانه . وتمادى المحبوب على هجرانه الى أن فرّقت بينهما الأيام (ص ٧٨) .

* – ولعهده برجل من صفوة إخوانه قد علق بجارية فتأكد الود بينهما ثم غدرت بعهده ونقضت وده وشاع خبرهما فوجد لذلك وجداً شديداً (ص٧٩).

* – ولأبي محمد صديق داره المرية فعنت له حوائج الى شاطبة فقصدها ونزل عند أبي محمد مدة إقامته ، وكانت له بالمرية علاقة هي أكبر همه وأدهى غمه وكان يؤمل سرعة الأوبة ولكن أبا الحسن مجاهد جيّش الجيوش لغزو خيران صاحب المرية فانقطعت الطرق بسبب هذه الحرب فتضاعف كرب صديق ابن حزم وكاد يطفأ أسفاً وصار لا يأنس بغير الوحدة ولا يلجأ إلا الى الزفير والوجوم (٨٥–٨٦) .

* – وعندما خرج من قرطبة ضمه الطريق مع رجل من الكتاب قد رحل لأمر مهم وتخلف عنه أهله فكان يرتمض لذلك (ص ٨٦) .

* – ويعلم من علق بهوى له وكان في حال شظف وكانت له في الارض مذاهب واسعة ومناديح رحبة ووجوه متصرف كثيرة فهان عليه ذلك وآثر الإقامة مع من يحب (٨٦).

* – ويعلم من نأت دار محبوبه زمناً ثم تيسرت له أوبة فلم يكن إلا بقدر التسليم واستيفائه حتى دعته نوى ثانية فكاد يهلك (ص ٨٧) .

* – ويعرف من أتى ليودّع محبوبه يوم الفراق فوجده قد فات فوقف على أثره ساعة وتردد في الموضع الذي كان فيه ثم انصرف كئيباً متغير اللون كاسف البال فما كان بعد أيام قلائل حتى اعتل ومات رحمه الله (ص٩٠) .

* – ويعلم من كان يقول لمحبوبه عدني واكذب. قنوعاً بأن يسلي نفسه في وعده وإن كان غير صادق (ص ٩٥) .

* – رأى أبو محمد أن رجلاً من اخوانه جرحه من كان يحبه بمُديَةٍ ، فلقد رآه وهو يقبل مكان الجرح ، ويندبه مرة بعد مرة (ص ٩٦) .

* – ويعرف جارية من ذوات المناصب والجمال والشرف من بنات القواد وقد بلغ بها حب فتى من إخوانه – من أبنــاء الكتاب - مبلغ هيجان المرار الأسود (ص ١٠٤) .

* – ويعلم جارية كانت لبعض الرؤساء فعزف عنها لشيء بلغه في جهتها لم يكن يستوجب السخط فباعها فجزعت لذلك جزعاً شديداً وما فارقهــا النحول والأسى ولا بان عن عينيها الدمع ، الى أن سُلّت وكان ذلك سبب موتها (ص ١١٦) .

* — ويعلم أبو محمد فتى من أهل الصيانة قد أولع بهوى له فاجتازه بعض إخوانه فوجده قاعداً مع محبوبه ، فاستجلبه الى منزله فأجابه على أن يذهب الداعي ويتبعه المدعو — وهو المحب — فلم يتبعه وقد طال تربص صديقه فلما لقيه عاتبه في إخلاف الوعد فاعتذر وورى . قال ابو محمد : فقلت للداعي : انا اكشف عذره صحيحاً من كتاب الله عز وجل إذ يقول : (ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملنا أوزاراً من زينة القوم) . فضحك من حضر (ص ١٢٨) .

* — ويعرف ابو محمد من يخفي حب محبوبه ولعهده به يوماً قاعداً ومعه بعض من كان يخفي عليهم حبه إذ اجتاز بهما المحبوب فما هو إلا أن وقعت عينه عليه حتى اضطرب وفارق هيأته الأولى واصفر لونه وتفاوتت معاني كلامه بعد حسن تثقيف فقيل له : ما عدا عما بدا ؟ فقال : هو ما تظنون. (ص ٣٧).

* — ولعهده بفتى من سروات الرجال وعلية إخوانه قد دهي بمحبة جارية مقصورة هام بها وقطعه حبها عن كثير من مصالحه وظهرت آيات هواه لكل ذي بصر الى أن كانت هي تعذله على ما ظهر منه مما يقوده اليه هواه . (ص ٤٠) .

* — ويعرف من كان سهر الليالي ولقي الجهد الجاهد فقطعت قلبه ضروب الوجد ثم ظفر بمن يحب وليس به اقتناع ولا عنده دفع فحين رأى من محبوبه بعض الكراهة لما نواه تركه وانصرف عنه لا تعففاً ولا تخوفاً لكن توقفاً عند موافقة رضاه (ص ٤٥) .

* — ولقد رأى من اشتد وجده وعظم كلفه حتى كان العذل أحب شيء اليه ليرى العاذل عصيانه ويستلذ مخالفته (ص٤٧) .

* — ويعلم امرأة موسرة ذات جوار وخدم فشاع على احدى جواريها أنها تعشق فتى من أهلها ويعشقها، وان بينهما معاني مكروهة. وقيل لها: ان جارتيك

فلانة تعرف ذلك وعندها جلية أمرها. فأخذتها وكانت غليظة العقوبة فأذاقتها من أنواع الضرب والإيذاء ما لا يصبر على مثله جلداء الرجال رجاء ان تبوح لها بشيء مما ذكر فلم تفعل البتة . (ص٤٩)

* – ويعرف عن امرأة جليلة حافظة كتاب الله ناسكة مقبلة على الخير : قامت بالوساطة بين عاشقين (ص٤٩–٥٠) .

* – ويعلم فتى من بعض معارفه قد وحل في الحب وتورط في حبائله وأضرّ به الوجد وأنضجه الدنق وما كانت نفسه تطيب بالدعاء الى الله عز وجل في كشف ما به ولا ينطق به لسانه وما كان دعاؤه الا بالوصل والتمكين ممن يحب على عظيم بلائه وطويل همه ، فما الظن بسقيم لا يريد فقد سقمه؟ ، ولقد جالسه يوماً فرأى من اكبابه وسوء حاله واطراقه ما ساءه فقال له في بعض قوله : فرج الله عنك . قال ابو محمد : فلقد رأيت أثر الكراهية في وجهه (ص ١١).

* – ويعلم بعض من كان محبوبه يعده الزيارة فما كان ابو محمد يراه الا جائيا وذاهبا لا يقربه القرار ولا يثبت في مكان واحد مقبلا مدبرا قد استخفه السرور . (ص١٧)

* – ويعلم من أبناء الكتاب فتى ورأته امرأة سرية النشأة عالية المنصب غليظة الحجاب وهو مجتاز ورأته في موضع تطلع منه كان في منزلها فعلقته وعلقها وتهاديا المراسلة زمانا على أرق من حد السيف (ص ٢٤) .

* – ولقد رأى ابو محمد – ممن لا يحبون الا مع المطاولة – من يستعمل الهجرة ويترك الالمام اذا احسّ من نفسه بابتداء هوى او توجس من استحسانه ميلا الى بعض الصور ! (ص ٢٤) .

* – ويعرف فتى من أهل الجد والحسب والأدب كان يبتاع الجارية وهي سالمة الصدر من حبه واكثر من ذلك كارهة له لقلة حلاوة شمائل كانت فيه فكان لا يلبث إلا يسيرا ريثما يصل اليها بالجماع ويعود ذلك الكره حباً مفرطاً وكلفاً زائداً واستهتاراً مكشوفاً . (ص٢٧) .

* ويعرف كثيراً من الناس لا يتهمون في تمييزهم ولا يخاف عليهم سقوط في معرفتهم ولا اختلال بحسن اختيارهم ولا تقصير في حدسهم قد وصفوا أحباباً لهم في بعض صفاتهم بما ليس بمستحسن عند الناس ولا يرضى في الجمال فصارت هجيراهم عرضة لأهوائهم . . ويعرف من كان في جيد حبيبه بعض الوقص فما استحسن أغيد ولا غيداء بعد ذلك . ويعرف من كان اول علاقته بجارية مائلة الى القصر فما أحب طويلة بعد هذا .. ويعرف من هوى جارية في فمها فَوَه لطيف فلقد كان يتقذر كل فم صغير ص (٢٧-٢٨) .

*-ويعرف من ابتدأ كشف محبته الى محبوبه بأبيات قالها ابو محمد (ص٣٠).

*-ويعرف فتى وجارية كانا يتحابان فأرادها في بعض وصلها على بعض ما ما لا يجمل .. ثم ذكر القصة (ص ٣١) .

❁ – ولعهده ببعض أهل المحبة لا يدع المراسلة وهو ممكن الوصل قريب الدار أتيّ المزار (ص ٣٤) .

❁ – وأما سقى الحبر بالدمع فيعرف من كان يفعل ذلك ويقارضه محبوبه بسقي الحبر بالريق (ص ٣٤) .

* – ولقد رأى كتاب المحب الى محبوبه ، وقد قطع في يده بسكين له فسال الدم واستمد منه وكتب به الكتاب اجمع .. ولقد رأى الكتاب بعد جفوفه فما شك أنه بصبغ اللك (ص ٣٥) .

* – ويعرف من كانت الرسول بينهما حمامة مؤدبة ويعقد الكتاب في جناحها (ص ٣٥) .

* – ويعرف جارية اشتدوجدها بفتى من ابناء الرؤساء وهو لا علم عنده وكثر غمها وطال أسفها الى أن ضنيت بحبه وهو بغرارة الصبا لا يشعر ويمنعها من إبداء أمرها اليه الحياء منه لأنها كانت بكراً بخاتمها – مع الاجلال له عن الهجوم عليه بما لا تدري لعله لا يوافقه . فلما تمادى الامر وكانا إلفين في النشأة شكت ذلك الى امرأة جزلة الرأي ، كانت تثق بها لتوليها تربيتها

فقالت لها : عرضي له بالشعر ففعلت المرة بعد المرة وهو لا يأبه في كل هذه ولقد كان لقناً ذكيا .. الى أن عيل صبرها وضاق صدرها ولم تمسك نفسها في قعدة كانت لها معه في بعض الليالي منفردين ، ولقد كان — يعلم الله — عفيفاً متصاوناً بعيداً عن المعاصي فلما حان قيامها عنه بدرت اليه فقبلته في فمه ثم ولت في ذلك الحين ولم تكلمه بكلمة وهي تتهادى في مشيها . فبهت وسقط في يده وفت في عضده ووجد في كبده وعلته وجمة فما هو إلا أن غابت عنه ووقع في شرك الردى واشتعلت في قلبه النار .. وكان هذا بدء الحب بينهما دهراً إلى أن جذّت جملتها يد النوى (ص ٦١ — ٦٢) .

* — وكثيراً ما يقول أبو محمد : وقد رأينا من هذه صفته ، أو : فقد رأينا منهم كثيراً . وشبه هذه العبارات يرمز فيها الى وقائع حبية يعرفها .

فهل كان ابو محمد صادقاً في هذه الأخبار ؟

أو بمعنى آخر : هل عاين أبو محمد كل هذه الوقائع ، وهل وقعت صحيحاً ، أم كانت مولدة لم تورد إلا شاهداً في الباب كما يخترع المذهبيون شواهد نحوية ولغوية ؟! قال أبو عبد الرحمن : سيتذرع من يريد تصحيح هذه الأخبار بهذه الامور :

أولاً : أن أبا محمد ثبت مأمون صدوق لم يُذكر بكذب ، بل إنه يقول في الطوق نفسه : « وما أحببت كذاباً قط وإني لأسامح في إخاء كل ذي عيب وان كان عظيما ، حاش من أعلمه يكذب ، فهو عندي ماح لكل محاسنه ، ومعف على جميع خصاله وذلك لأن كل ذنب فهو يتوب عنه صاحبه الا الكذب .. ثم ساق الاحاديث والأثار الكثيرة (ص ٥٥ فما بعدها) فمستبعد جداً أن يتزيد ابو محمد في القول .

ثانياً : أن أبا محمد عاش في كنف النساء ، وهن علمنه القراءة والكتابة وما عرف الرجل حتى بقل وجهه ، وقد بدأ يحب وهو دون العشرين (ص ٩١) ولم يزل باحثاً عن اخبار النساء كاشفا اسرارهن ، وكن قد

أنسن منه بكتمان ؛ فكن يطلعنه على غوامض امورهن ويقول : ولولا ان أكون منبهاً على عورات يستعاذ بالله منهـا لأوردت من تنبههن في السر ومكرهن فيه عجائب تذهل الالباب (ص ١٢٥) ويقول : ولقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيري لأني ربيت في حجورهن ونشأت بين أيديهن ولم أعرف غيرهن ... ولم يكن وكدي واعمال ذهني منذ أول فهمي وأنا في سن الطفولة جداً الا تعرف اسبابهن والبحث عن اخبارهن وتحصيل ذلك ، وأنا لا أنسى شيئاً مما أراه منهن (ص ٥٠) .

فلا يستغرب على من نشأ هذه النشأة –في بيت وزاري ومجتمع حضاري– أن يأتي بأخبار الحب كلها .

ثالثاً : ان ابا محمد يقول في نهاية كتابه : سيرى كثير من إخواننا أخبار آلهم في هذه الرسالة مكنيـاً فيها عن أسمائهم على ما شرطنا في ابتدائها (ص ١٥٣) .

فأبو محمد كنى عن أسماء هؤلاء المحبين لا لأنها مكذوبة مسندة الى مجهولين ولكن للتعليل الذي علل به هو عن هذه التكنية . قال : فاغتفر لي الكناية عن الأسماء ؛ فهي إما عورة لا نستجيز كشفها ، وإما نحافظ في ذلك صديقاً ودوداً ورجـلاً جليلاً ، وبحسبي أن أسمي من لا ضرر في تسميته ولا يلحقنا والمسمى عيب في ذكره (ص ٢) .

قال أبو عبد الرحمن : هذه وجوه لائحة ومخارج جليلة في تعزيز الثقـة بصدق هذه الأخبار الغرامية ، ولكنـي لا أزال أعجب من استحضار أبي محمد لهذه اخبار وتبويبها في ذهنه ، وأكثرها ليس بذي خطر وليس فيه ما يلفت الانتباه ولا أستبعد أن يستشهد أبو محمد بأخبار يولدها ذهنه على ضوء الواقع المألوف .. وليس في هذا ما يقدح في عدالته وأمانته – رحمه الله – لأنها طرائف أدبية أيدها بالدرس العلمي وبما هو متعارف عليه بين الناس ، والدليل على ذلك : أن أبا محمد يختم كل خبر بمقطوعـة من شعره تكلفها للمناسبة .. ولهذا مزيد ايضاح في درس الطوق من الناحية الأدبية .

ودليل آخر : ان ابا محمد ذكر في قصيدة له الراح والطنبور ، ثم أكد ان الراح والطنبور لم يكن له في يوم ما عادة وخلقاً ، وإنما جاء ذلك وفق قوله تعالى عن الشعراء : انهم يقولون ما لا يفعلون..فادعاء الراح والطنبور من كذبات أبي محمد المباحة !!

بل ان في بعض أخبار ابي محمد نكارة كقوله : انه نظم ثلاثة أبيات في النوم وزادها رابعاً بعد اليقظة .. وكل هذا يأتي في موضعه — إن شاء الله .

تهميشات :

ا — تباحثت مع العلامة الشيخ أبي تراب الظاهري في منسلخ رمضان عام ٨٨ بمكتبته العامرة عن رسائل تتعلق بأستاذ الجميع ابي محمد بن حزم — قدّس الله روحه — فأفادني بهذه الأمور :

أ — ان كتاب مسائل أصول الفقه الذي ذكرته في الحلقة السابقة من تآليف ابن حزم يحتمل أن يكون هو نفس كتاب «إحكام أصول الأحكام». قال أبو عبد الرحمن : وهذا غير مستبعد بل هو الراجح لأن المؤرخين لم يذكروا له كتاباً بهذا الاسم ولأن الأمير الصنعاني له تعليقات على المجلس وعلى أصول الاحكام وكثيراً ما يشير الى ذلك الشيخ أحمد شاكر في حواشيه عليهما .

ب — كتاب الايصال لأبي محمد سبعون مجلداً ، وقد قلنا في الحلقة السابقة انه اربعة وعشرون مجلداً .. ولدى الشيخ ابي تراب ثلاثة أجزاء منه،وقال: انه موجود بباريس .

ج — للشيخ أبي تراب مؤلف دون فيه حبه على غرار طوق الحمامة .. قال أبو عبد الرحمن : بيت شيخنا مليء بالجواري ، فهل للشيخ أبي تراب مثل هذا المستقى ؟!

٢ – ورد ذكر كتاب باسم « الجماهير في أنساب المشاهير » لابن حزم في كتاب « اتعاظ الحنفا باخبار الأئمة الفاطميين الخلفا » لتقي الدين احمد بن علي المقريزي تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال طم لجنة التأليف عام ١٣٦٧ .

قال ابو عبد الرحمن : يظهر لي أنه نفس كتاب « جمهرة الأنساب » لأن النص الذي أورده المقريزي هو النص الموجود تماماً في جمهرة الأنساب .

٣ – صدرت أخيراً دراسة جيدة للدكتور عبد الكريم خليفة بعنوان ابن حزم حياته وأدبه ، ركز فيها على الناحية الأدبية .

٤ – نشر الدكتور صلاح الدين المنجد رسالة ابن حزم عن فضائل الاندلس وعلمائها مع رسالة ابن سعيد والشقندي في طبعة تجارية ، وكل هذه الرسائل أوردها المقري في المجلد الرابع من نفح الطيب ، ولكن الناشر ليس له مجهود في نشر هذه الرسائل فلم يحقق الفاظها ويلقي الضوء على حياة بعض الاعلام وآثارهم .

٥ – قلت في الحلقة السابقة في الحاشية رقم ٣٤ : قرأت في المحلى أن أبا محمد لا يرى عتق الأمة نافذاً إذا كان المعتق كلفا بحبها ولا أدري في أي باب ذكر ذلك وكنت أحسبه في باب العتق . اهـ .. ومن فضل الله علي وجدت هذا النص في كتاب الصوم من المحلى ج٦ ص ٥٠١ طم الإمام..يقول أبو محمد : « فمن لم يجد الا رقبة لا غنى به عنها لأنه يضيع بعدها أو يخاف على نفسه من حبها لم يلزمه عتقها لقوله تعالى:(لا يكلف الله نفسها الا وسعها) وقوله : (وما جعل عليكم في الدين من حرج) وقوله (يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) .

للبحث صلة

كتبه : **ابو عبد الرحمن بن عقيل**

مَعَ ٱلقُرَّاءِ.. فِي أَسْئِلَتِهِمْ وَتَعْلِيقَاتِهِمْ

١ - حول ابن حزم

٢ - لقاء مع الشيخ المغربي

٣ - ترجمة أبي تراب الظاهري

حول ابن حزم :

* - في مطلع « التوابع والزوابع » قال ابن شهيد : « لله أبا بكر ظن رميته فأصميت » فأبو بكر المخاطب هو « أبو بكر ابن حزم » ولكن من هو ابن حزم هذا ؟ .. قال « بطرس البستاني » : « هو أبو بكر ابن حزم كما ذكر ابن بسام، وأسرته شهيرة في الأندلس ومنها الفقهاء والوزراء والأدباء.. ثم ذكر أبا محمد وأبا المغيرة . » [مقدمة التوابع والزوابع ص ١١٧] وكثيرون غير بطرس يحسبون أن أبا بكر هذا من أسرة الفقيه أبي محمد وبعضهم يحسبه أخاه ، والصحيح ما ذكره الحميدي تلميذ أبي محمد وأعرف المؤرخين بأهل الأندلس على العموم وبأصدقاء شيخنا على الخصوص . قال : « أبو بكر يحيى بن حزم شيخ من شيوخ الأدب ، وهو الذي خاطبه أبو عامر ابن شهيد برسالة « التوابع والزوابع » التي سماها « شجرة الفكاهة » ، وهو من بيت آخر غير بيت الفقيه أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم » [جذوة المقتبس للحميدي ص ٣٥١ رقم ٨٨٦] فكيف فات هذا على بطرس ؟ قال أبو عبد الرحمن : ولا يمكن أن يكون أبا بكر بن أحمد أخا أبي محمد علي بن أحمد لأنه مات سنة ٤٠١ عن ٢٢ سنة « طوق الحمامة » ص ٢١٧ وابن شهيد إنما ألف الرسالة بعد عام ٤٠٤ .

* - جاء في مادة (الظاهرية) لـ (شتروتمان) تعريب ابراهيم زكي خورشيد من « دائرة المعارف الاسلامية » [ج ١٥ ص ٤٠٩] عن ابن حزم:

فقد توسع كثيراً في تنميتها – يعني الظـاهرية – بانكاره المتشدد للرأي والقياس والاستصحاب !!؟

قال أبو عبد الرحمن :الاستصحاب من أصول أبي محمد توسع فيه بإسراف، وكان توسعه فيه ضرورة حتمية بعد أن ضيق على نفسه بانكار القياس .. وان عدم تعميم الحكم بالقياس يعني أن يبقى ما كان على ما كان ، وهذا هو حكم الاستصحاب : استصحاب الحال ، واستصحاب البراءة .

* – في « دائرة المعارف الاسلامية»لأرندنك [ج١ ص١٣٩]: والناحية المبتكرة عند ابن حزم هي تطبيقه لأصول الظاهرية على العقائد !!؟

قال أبو عبد الرحمن : الظاهر والتأويل ضدان لا يجتمعان .. والواقع أن ابن حزم طبق ظاهريته على الفروع أما في العقائد فكان متأولا ، وهذا مما عيب به ، فقالوا : انه جامد في الفقهيات مقرمط في الصفات ، ولتراجع منامة ابن كثير التي رأى فيها النووي في البداية والنهاية [ج ١٤ ص ٢٩١ سنة ٧٩٣ ط م السعادة] وإذن فابن حزم لم يطبق ظاهريته على العقائد ! .

* – في « دائرة المعارف » بادارة فؤاد البستاني [ج٢ ص٤٤٦ ط بيروت عام ١٩٥٨] : « أبو الوليد محمـــد بن يحيى بن حزم ابن عم الفقيه ابي محمد علي ٠ اه .. قال أبو عبد الرحمن : الوزير الشاعر أبو الوليد ابن حزم من بني مذحج من القحطانيين عربي صليبة ، أما أبو محمد ففارسي الأصل .

ومن العجيب أن الدكتور طه الحاجري في كتابه عن ابن حزم أيد أنه من أصل نصراني أسباني ؛ لأن حزما من أسماء الأسبانيين ، أو بالأصح من الأسماء التي لم يتواضع عليها المشارقة .. قال أبو عبد الرحمن : فهل أسرة آل حزم المذحجية تكون اسبانية الأصل لهذا الضابط ؟!!

الواقع ان ابن حزم فارسيٌ ،وإن شذّ أبو مروان ابن حيان برأي صادف هوى في نفوس المستشرقين فنصروه ، وابن حزم أثبت نسبه في كتابه الصاعد « طبقات الأمم » ص ١٠١ – واتفق على ذلك مترجموه .. بل قال أبو محمد نفسه :

سما بيَ ساسانٌ ودارا ، وبعدهم قريشُ العلى أعياصها والعنابسُ
فما أخرت حربٌ مراتب سؤددي ولا قعدت بي عنذرى المجد فارسُ

وقال فيه صديقه الحميم ابو عامر ابن شهيد :

ودون اعتزامي هضبة « كسروية » من الحزم « سلمانية » في المكاسر

* – ذكر ابن شهيد في التوابع والزوابع : ان شخصاً اسمه ابو محمد انتضى عليه لسانه عند المستعين واتهم شعره وشك فيه .. فقال بطرس في المقدمة [ص ٣٨ – ٣٩] : الاولى أن يكون المقصود أبا محمد ابن حزم لسلاطة لسانه ، .. قال أبو عبد الرحمن : كيف يكون ابن حزم ، وابن شهيد مدحه في التوابع نفسها بقصيدة رائية جاء فيها :

وأنت ابن حزم منعش من عِثارها إذا ما شَرقنا بالجدود العواثر
وما جرٌ أذيال الغنى نحو بيته كأروع معروي ظهور الجرائر
إذا ما تبَغّى نضرة العيش كرٌّها لدى مشرع الموت لمحة ناظر
فسلٌ من التأويل فيها مهنـداً أخو شافعيات كريم العناصر
لمعتزليّ الرأي ، ناءٍ عن الهُدَى بعيد المرامى مستميت البصائر
يطالب بالهندي في كل فتكة ظهور المذاكي عن ظهور المنابر

ويدل على أن هذه الصداقة دامت حتى الوفاة أن ابن شهيد تذكر ابن حزم في مرضه الذي مات فيه فكتب له قصيدة فيها :

فمن مبلغ عني ا ْبنَ حزْم وكان لي يداً في ملمّاتي وعند مضايقي

وقد جاوبه شيخنا بقصيدة .. وكيف يكون ابا محمد ابن حزم وهو من المعجبين بأدب ابن شهيد ، وقد سجل هذا الاعجاب في بعض كتبه ؟ وأيضاً فما نقل المؤرخون قط أنّ بينهما خصومة ، وما نقل قط ان ابن حزم وشى بأحدٍ عند الملوك والأمراء ، ويعيذُ الله أبا محمد من طعن في الخلف وهو الذي يقول رأيه مجاهرة مواجهة غير خافت في السر . وبعد هذا فكيف يمدح ابنُ شهيد أبا محمدٍ شعراً وُيعرِّض به نثرا في آنٍ واحد ؟

ألا ما أبشع الاحتمالات التي تنافي وقائع التاريخ !!

* – نقل الشيخ مسعود الندوي – رحمه الله – عن كتاب « سوط الرحمن » للمولوي فضل رسول البدايوني [توفي سنة ١٢٩٧ هـ.] : كان داود

الظاهري من أتباع الشيطان !! .. ثم ظهر ابن حزم الذي كان خبيثا !!.. ثم جاء تلميذه ابن القيم ! . وابن تيمية تلميذ ابن القيم !!! .. وكان أصحابه أشرارا جهلاء ! .. لا تذكروا الشوكاني في الفقه وانما كان أديبا !! قال الشيخ مسعود: فهل لناقد مجال للقول في هذه اللآليء الغالية من عقد التحقيق البليغ ؟! [تاريخ الدعوة الاسلامية في الهند ص ٢١٠] .

* — كتب هاتف من بعد رسالة إلى أبي محمد ابن حزم يستعيذ فيها الله مما ابتلي به ابن حزم من الطعن على سادة المسلمين والقول في دين الله تعالى بما لم يأذن به الله .. وفيها يقول : ومثلك قد انطوى على خبث سريرة، وأبدى بلفظه ما يجنه ويستره ، وانك جمعت ثلاثة أشياء : قلة الدين ، وضعف العقل ، وقلة التمييز والتحصيل .. فأما قلة دينك فلما أظهرته من الطعن على الصحابة ، وأما ضعف عقلك فلما ظننته بنفسك من اظهارك الحقّ وأنه قد صح لك ما لم يصح لصحابة نبيك .. وأنت نبعت في آخر الزمان في ذنب الدنيا بعد البعد عن القرون الممدوحة ، في وقت قلة العلم ، وكثرة الجهل .. وأما ضعف تمييزك وتحصيلك فظاهر في تناقضك وذلك أنك تنهى عن تقليد الصحابة فمن دونهم ، وتحثُّ أتباعك على تقليدك والتعويل على تواليفك ، فانتبه أيها الجاهل ، واعرف منزلتك ، فإنك جاهل مقدار نفسك . ولئن لم تنته من رقدتك وتستيقظ من غفلتك وتبادر إلى التوبة من عظيم ما اقترفت فسيرد فيك وفيمن يقصدك ويترك أن يقيم فيك حق الله من أجوبة أهل العلم في أقطار الأرض ما ستعلمه .. وأرجو أن يريح الله منك العباد والبلاد دون ذلك أو يصلحك ان كان قد سبق في علمه ذلك .!! اهـ [تراجع رسالة « الهاتف » من بعد لابن حزم] قال أبو عبد الرحمن : لا أدري كيف يلوم الناس أبا محمد على عنفه وسلاطته وهو يتلقى مثل هذاء الممرور ، وأقول : اللهم اجعل لي عقلا كعقل أبي محمد ! .

* — طبع بهامش « تفسير ابن عباس » جمع الفيروزآبادي، وتفسير الجلالين رسالة بعنوان « الناسخ والمنسوخ » لأبي عبد الله محمد بن حزم ، وقد نسبها إلى أبي محمد ابن حزم الظاهري كل من :

سعيد الأفغاني في كتابه ابن حزم [ص ٥٩ ط م الهاشمية عام ١٣٥٩] ومحمد أبو زهرة في كتابه ابن حزم [ص ١٤٥ و ص ٣٥٨] وأرندنك في دائرة المعارف الاسلامية [ج ١ ص ١٤١] ودائرة المعارف بإدارة فؤاد افرام البستاني [ج ٢ ص ٤٤٣ ط بيروت عام ١٩٥٨] والموسوعة العربية الميسرة [ص ١٣] وجرجي زيدان في تاريخ آداب اللغة ، والزركلي في الأعلام ، وكحالة في معجم المؤلفين ، والسمان في مقدمة المداواة ، والمدني في مقدمة الفصل .

قال أبو عبد الرحمن : وكل هؤلاء مخطئون في عزوها إلى أبي محمد علي بن حزم الظاهري ، وبرهاني أمور :

أولها : أن أبا محمد يصدر كل مسألة له فيها رأي في كل مؤلفاته بقال « أبو محمد » والرسالة ليس فيها شيء من ذلك .

وثانيها : أن الرسالة مبدوءة بقال العالم الأوحد أبو عبد الله محمد بن حزم والظاهري كنيته واسمه ابو محمد علي بن حزم .

وثالثها : انها تختلف في منهجها وتلخيصها وتفريعاتها وفكرتها عن الفصل الذي عقده ابن حزم الظاهري عن النسخ في كتابه «الاحكام لاصول الآحكام»

ورابعها : جاء فيها [ج ٢ ص ١٥٤ هامش الجلالين] هذه العبارة :

« وأنكر اليهود النسخ وقالوا : انه يؤذن بالغلط والبداءة ، وهم قد غلطوا لأن النسخ .. الخ » قال ابو عبد الرحمن : الشاهد : « وهم قد غلطوا» فأين هذا الهدوء في مثل هذا الموضع من حدة أبي محمد وعنفه ، مع ان خصمه يهودي ، وهو لا يغضي لهم على سوأة ، ويقبحهم ويلعنهم كل ما مر على ذكرهم ولو في غير نزاع ؟!

وخامسها : ان فيها [ص ١٥٤ — ١٥٥] هذه العبارة : وسمى بعضهم الاستثناء والتخصيص نسخاً والفقهاء على خلاف ذلك . ا هـ

قال ابو عبد الرحمن : أنرى أن أبا محمد لا يذكر رأيه ودليله اكتفاء بأن الفقهاء على خلاف ذلك ، وهو الذي لا يستوحش من مخالفتهم ، ولا يستكثر بموافقتهم .

وسادسها : أن فيها [ص ١٦٨] هذا الكلام : « واذا حضر القسمة اولو القربى واليتامى والمساكين : نسخت بآية المواريث ، وهي قوله تعالى : يوصيكم الله في اولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين » .

قال ابو عبد الرحمن : هذا بخلاف مذهب أبي محمد علي بن حزم الظاهري فالآية ليست عنده بمنسوخة، بل يوجب إعطاء الأقارب واليتامى، الخ.. شيئاً من التركة اذا حضروا القسمة ، ويقول : ان الآية غـــير منسوخة خلافاً لمن زعم ذلك [المحلى ج ٩ ص ٣٧٩ م ٦ ط م الامام] .

وسابعها : انه لم يعزها له احد من المؤرخين القدماء، ولم يذكرها السيوطي في « الاتقان » ولا الزركشي في « البرهان » فيمن الف في الناسخ والمنسوخ، وفي كتاب « النسخ في الشريعة الإسلامية » لعبد المتعال جبري [ص ٥٦ ط م دار الجهاد الطبعة الاولى عام ١٣٨٠] فقـــد قال عن مؤلف هذه الرسالة : وهو غير ابي محمد ابن حزم ، ولم يذكر ايضاحاً أكثر .

ولقد رجعت لكثير من كتب التراجم الاندلسية فما وجدت عالما اسمه ابو عبدالله محمد بن حزم غير: محمد بن قاسم بن حزم الأندلسي يكنى أباعبدالله توفي سنة ٣٤٤ ذكره ابن الفرضي في كتابه «تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس (ص ٦٦ ج ٢ طيم ١٣٧٤ والناشر عزت العطار الحسيني والترجمة برقم ١٢٧٢)

٢ – لقاء مع الشيخ المغربي :

أشير الى ما كتبه الاستاذ الجليل محمد بن ابراهم الكتاني المغربي في الجزء السادس من الجلد الرابع عدد ذي الحجة عام ١٣٨٩ هـ وأشكر لفضيلته عنايته وحرصه بما يكتب عن الامام ابن حزم ، وأشكر لمجلة العرب وصاحبها الذي أتاح لنا هذا اللقاء ، وكم أنا به سعيد !

أ – مناظرة ابن حزم للباجي وردت في كليمة لأبي تراب الظـــاهري كتبها تعقيباً عليّ بجريدة البلاد عدد: ٢٦٢١ في ١٨/ ٦/ ٨٧ ثم أكد لي شفهيا ان المخطوطة لديه ، وكذلك بعض اجزاء « الايصال » . ولذا فيحسن طلب

اوصاف المخطوطات والافادات المطلوبة منه شخصيا وهذا عنوانه: « ابو تراب الظاهري – المملكة العربية السعودية – جدة – جريدة البلاد – او وزارة الأعلام » . مع أنني أبلغته شفهيا طلب فضيلة الشيخ المغربي .

ب – لم يخف على الدكتور شوقي ضيف أن كليمة ابن حزم عن ابي الأجرب جعونة بن الصمة موجودة في رسالته عن علماء الأندلس بدليل التعليقة رقم ٢ ج ١ ص ١٣٢ .. ولا مراء أن هذا مجرد احتمال من الدكتور شوقي لكثرة ما يرويه ابن حزم من الشعر وأخبار الشعراء .

ج – لم يقل الدكتور ممدوح حقي إن الديوان الذي جمعه الحميدي هو الديوان الذي سينشره . قال في هامش ص ٢٥ من حجة الوداع : « عثرنا على جزء من ديوان ابن حزم وهومخطوط نادر نرجو ان نوفق الى نشره قريباً » ا.هـ

د – لم تبلغ كتب ابن حزم التي ذكرتها ما احصاه الاستاذ الكتاني، لأنني قيدت ما احصيت بثلاثة امور :

١ – عدم ذكر رسائله المتعددة المجموعة في « الفصل » بل اعتبار الفصل كتابا واحداً .

٢ – عدم الالتفات إلى الكتب التي تتعدد اسماؤها والمسمى واحد . « كجمهرة أنساب العرب » نقل عنها المقريزي بعنوان : أنساب المشاهير ، وقد نبهت على هذا ، و ك « مداواة النفوس » سميت بعدد من الأسماء .

٣ – عدم ذكر رسائل في حدود الورقتين والثلاث والخمس كرسالة « الأمهات » في ورقتين [ج ٢ ص ٧٤ رقم ٦٨٢ فهرس المخطوطات المصورة] .. ومن حقي على شيخنا الكتاني أن يساهم في هذه المجلة بمعلوماته الجديدة القيمة عن ابن حزم وبالأخص اسماء مؤلفاته التي لم أذكرها وله خالص التحية والتقدير .

هـ – الظاهريون كثيرون في الهند والباكستان ، ومحبو ابن حزم من أبناء هذا الجيل كثيرون ، وفي المدينة المنورة ظاهريٌ متطرف يقول : ليس في

الكلام فعل وحرف انما هو اسم فقط لأن الله يقول : وعلّم أدام الأسماء ، ولم يقل: وعمله الأفعال والحروف !!.

(٣) ترجمة أبي تراب الظاهري :

حسب طلب الأستاذ الجليل محمد بن ابراهيم الكتاني أنقل هذه الترجمة لصديقنا العلامة أبي تراب باملائه من جريدة البلاد عدد ٢٦٩٧ منذ ثلاث سنوات تقريباً بعنوان : « هكذا بدأت . »

قال أبو تراب : « لا أعرف تاريخ مولدي على وجه الدقة ، لكنه وقع بيدي ناموق عليه رَوْسَمٌ لجورج الخامس ، زبرته شناتِرُ جدّي ، يهنيء فيه والدي بولادتي وتأريخه ٢٣ من ذي العقدة من سنة ١٣٤٣ هـ مضين من الهجرة المصطفوية .

وأما الدراسة فأول ما تلقيت على جدّي ثم والدي ، حيث غرس فيّ حب العربية منذ نعومة أظفاري . واستمررت في الجلوس في حلقته للتلقي والطلب مع أخوة لنا ، لا أدري أية أرض طوتهم .. وكان الوالد منقطعاً للتدريس بالجامع العباسي ، وقد تخرج عليه جملة من العلماء .. وهم قائمون في شتى الأنحاء بوظيفة التدريس والوعظ والارشاد .

وكنت كلفاً بنساخة الكتب النادرة والارتحال لها .. ونسخت بيدي أكثر من خمسة عشر مجلداً من الكتب النادرة،منها كتاب «العلل» للدارقطني، وتاريخ « يحيى بن معين » و « مصنف عبد الرزاق » و « الاستذكار والتمهيد » لابن عبد البر .

وكنت لا أميل بطبعي في الصغر إلىمايميل اليه الصبيان مناللعب واللهو.. غير أني كنت أبري السهام ، وأوتر الأقواس .. وأجيد ضرب المقاليع . وكنت مولعاً بقتل الأوزاغ ، وكنت أتهيأ لها من وقت لآخر ، وألفت فيها رسالة سميتها « الرزغة في قتل الوزغة » وقد نشر معظمها في مجلة المنهل ، ثم اشتغلت بصناعة الحبر ، وألفت فيه رسالة أسميتها « الإمداد بصناعة

المداد ». هذه جمهرة من الأعمال التي قمت بها بادىء ذي بدء .. ولما راهقت الحلم حبب إلي الخلاء . وكنت أنقطع في مسجد ناءٍ عن البلد للتعبد .. وأستعين على ما يلوب بخواطر الشباب بالصيام ورياضة النفس .. وربما تنزهت في مونق البساتين، وخضر المروج ، للتفكير والتأمل والاكتساب الروحي.. وقد درست في حلقة الوالد علوم الشريعة والعربية ، وأتقنت الصرف والنحو وقرأت العروض وأصول الفقه ومصطلح الحديث وعلم العقائد والتفسير والحديث .. وقرضت الشعر وكتبت من النثر رسائل مسجوعة ، وهذا هو اللون الذي كنت أميل اليه ثم مججته عندما درست علم المعاني والبيان .

ثم جلست للتدريس وأنا طالب فكنت أقرىء صغار الطلبة ، وعلمت الصبيان في المدارس الحكومية ، ودرست الفارسية على جدي ، وقرأت بعض دواوين الأدب عليهما .

والتحقت بكلية الشريعة بالجامعة العباسية..وحصلت منها على (دبلوم) في الدراسات الاسلامية العليا ، والتحقت بعد ذلك بكلية اللغة العربية فيها ، وحصلت على(ليسانس)في اللغة العربية والآداب.بعد ذلك سافرت الى القاهرة ودرست على زمرة من علماء الأزهر ، ولقد ألفت في مصر كتاب « اختلاف الفقهاء » ومقدمة كتاب « انتقاص الأعراض » .. وأهديتهما لدار الكتب المصرية بطلب من مديرها..ومكثت بمصر زمناً ثم سافرت الى اليمن واستفدت من مشائخ صنعاء منهم الشيخ عبد الواسع الواسعي والشيخ محمد زبارة وزير المعارف بها آنذاك .

ولما قدمت المملكة تصديت للتدريس بالمسجد الحرام .. وعكفت على ذلك سنوات باذن من سماحة رئيس القضاة الشيخ عبدالله بن حسن آل الشيخ – رحمه الله – ولازمت مكتبة الحرم المكي ايام الشيخ احمد عبدالله دحلان والشيخ عبدالله فدا – رحمهما الله – حيث نسخت عدة كتب منها قطعة من « شرح السنة » للبغوي و « لوامع الأنوار » للموصلي وهو نظم « مشارق

الأنوار » للقاضي عياض بن موسى اليحصبي ، و « كشف المُعَمى » لقطب الدين النهروالي وديوان الزللي .. وغيرها .

وعملت بهذه الجريدة – يعني البلاد – مصححاً منذ عهد رئيسها الأسبق الشيخ عبدالله عريف ، وأنا الآن مراقب بالمطبوعات .

ولم أحص قط الكتب التي قرأتها ، وهي تعد بالألوف وانما أذكر لك منها : « المحلى » لابن حزم ، و « إحكام الاحكام » له ايضاً، وكتاب «الأم» و« الرسالة » للشافعي و « الهداية » للمرغيناني و « شرح القصائد » للنسفي و « المدونة الكبرى » لسحنون و « فتح القدير » لابن الهمام و « المغني »لابن قدامة و « تفسير الطبري » و « مسند الامام ابن حنبل » و « الصحاح الستة » و« تفسيري ابن كثير والبغوي » و« الموافقات والاعتصام » للشاطبي و « فتح الباري » لابن حجر و « تاريخ الطبري » و « تاريخ ابن خلدون » و « السنن الكبرى » للبيهقي وغيرها .

ومن مؤلفاتي « معجم النحو » وديوان « بث الكث في الغث والرث» ، و « اختلاف الفقهاء » وكتاب « الألفاظ في اللغة » هذا وأنشدك قول التفتازاني :

طويت بإحراز الفنون ونيلها　　　رداء شبابي والفنون جنون
ولما تعاطيت العلوم وحُزْتها　　　تبين لي ان الجنون فنون

قال ابو عبد الرحمن: وابو تراب اليوم حجة في اللغة لا يضارعه أحد، ولم يبق من زيه القديم « زي أبي براقش » الاعكازته ، وله معارك في الصحف وكان عنيفا مهيبا ، واسمه عبد الجميل ، وابوه : عبد الحق ابو محمد محدث في الحرم المكي، وقد شرح مسند الامام احمد في عشرين مجلدا ضخما – وكتبه :

ابو عبد الرحمن بن عقيل
– سلمت براجمه من الأوخاز –